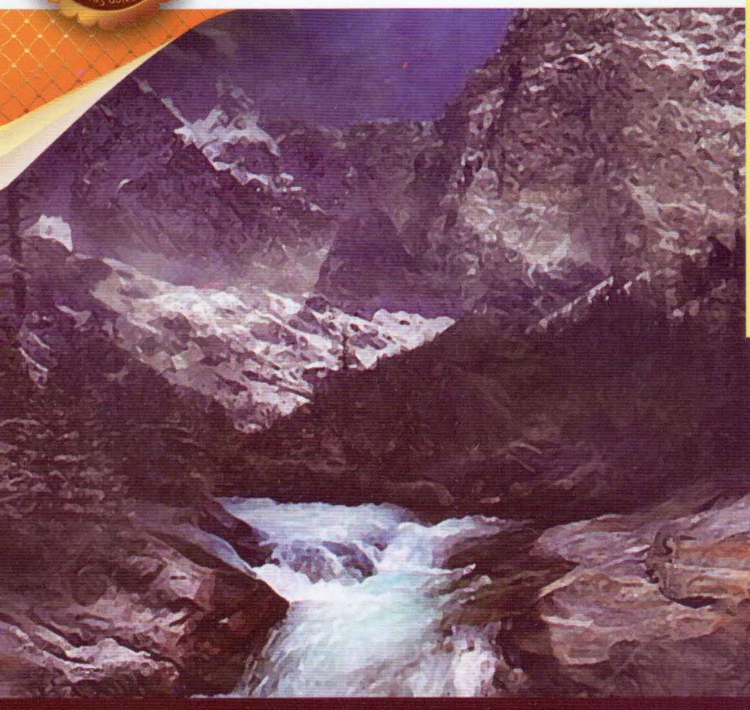
إصدار متميز

Special Edition Special Edition

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي



أميرة الجبل

Princess of the Mountain

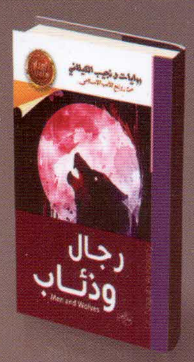
عبد الرحمن

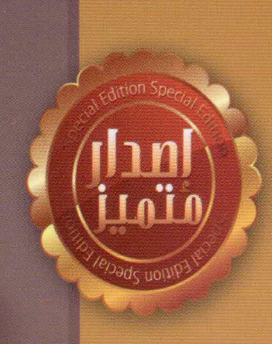
Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا

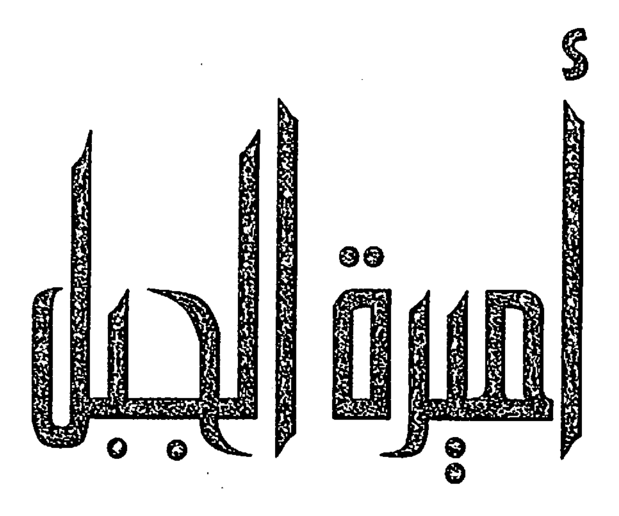






الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
تليفاكس: 20242106060+
Email:daralsahoh@gmail.com

عالم المعرفة
الجزائر
تليفاكس : 021.20.56.62
حي باحة 02 فيلا 07 تاماريس - المحمدية - الجزائر
Email : alemelmaarifa@yahoo.fr



د. نجيب الكيلاني

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٥هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٩٨٠٥

الترقيم الدولي:
977-225-351-1



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com



١

الريح تعصف فى الخارج، وعبر زجاج النافذة أستطيع أن أرى مياه الخليج الزرقاء، وهى تزبد وتتوج سلاسل الأمواج بذلك الزبد الأبيض، وذرات الرمال تضرب الزجاج وتصطدم بهيكل مكيف الهواء فينبعث منها فرقعة نحيلة، والبرد شديد على غير العادة، والسماء قد تزاحمت فيها السحب التى تنذر بالمطر، وأنا أجلس فى مكتبى منكمشًا على نفسى بكامل ثيابى الصوفية، لم أستطع أن أخلع سترتى لألبس ردائى الأبيض الخاص بالمستشفى، فقد آثرت الدفء والانطواء، ورشف فنجان الشاى الذى تصاعدت أبخرته، ودخلت الممرضة الهندية «فاتسالا» قائلة :

- «لا أحد». .

- «بالطبع، فالجو لا يشجع على الخروج ومن ثم لن يأتى إلينا أى مريض إلا إذا كانت هناك حالة ملحة أو مستعجلة . .».

وعـدت إلى الصـمت والانكمـاش، ورشف الشـاى الساخن، والنظر عبر النافذة إلى الأمواج الثائرة والزبد الثلجى الذى يعلو ويهبط والسماء الملبدة بالغيوم. .

ها هى مـدينة رأس الخيـمـة تقبع هادئة على شاطئ الخليج العربى، وليس فى الإمارة ما يثير، فهى تعيش بلا صحف أو مجلات. . وهذه الأوراق ذات قيمة كبيرة بالنسبة لى لكن ما الحيلة؟ يجب أن أنتظر آخر الأسبوع حتى أذهب إلى مـدينة «دبى»، وهناك أشترى عدداً من الصحف والمجلات والكتب تكفينى لمدة أسبوع، ولكنى فى الحقيقة أقرؤها فى يوم أو يومين.

منذ أعوام وأنا أنام هنا. . رفقتى من المضمدين والممرضات والفرّاشين، وعدد قليل من المدرسين. .

ومع ذلك فأنا أشعر بفراغ كبير. . هنا منذ عام. . ما زلت أذكر يوم هبطت بى الطائرة مطار دبى ثم بقيت فى الضيافة، (فى فندق كارلتون) ثلاثة أيام، وبعدها حملتنى السيارة «اللاندروفر» إلى هنا. . الحقيقة أننى أحسست بانقباض شديد لأول مرة، لقد بدت المدينة كقرية صغيرة لا تتناسب وتاريخها الطويل، وأسطولها البحرى الضخم الذى تتحدث عنه الكتب القديمة، وذكريات المعارك البحرية على صفحة البحر، ورجال القواسم.

تلك الأسرة العريقة التى كان لها حول وطول امتدً حتى شطآن إفريقيا، ومناطق كثيرة فى آسيا. . على أطراف باكستان والهند وإيران. . دنيا!! والحقيقة أننى مللت أكل السمك وأنا أكره الحياة التى تسير على وتيرة واحدة، وأكره طعام المعلبات. . الأكل المحفوظ لا يستثير شهيتى. . وأكره أحاديث الناس، إن أغلبها ينصب على التجارة، وخاصة تجارة الأراضى، وعن أحلام البترول الذى طال انتظاره، وعن السيارات وأنواعها وحوادثها وأثمانها، وعن الغرباء الذين يتسللون إلى شاطئ الخليج، تراودهم أحلام الثراء. . ليس هنا من يتحدث عن مسرحية جديدة، أو فيلم سينمائى جديد، أو حدث أدبى ذى بال، أو صراع سياسى ذى قيمة. . «آه». . لعنة الله على السياسة. . لشدة ما اكتويت بنارها، وتعذبت من جرائها فى الماضى فى بلدى البعيد، وهربت بجلدى باحثًا عن الأمن والسلام، وهأنذا أمَلُّ الهدوء وأحن إلى ألسنة اللهب التى قد تحرق أناملى وتسبب لى النكد والعناء والتشرد من جديد. .

أمر آخر يزعجنى. . إننى أعيش بلا امرأة. . وليس هناك رجل لا يحلم بالمرأة، الطفل لا يشعر بالدفء إلا إذا ضمته أمه إلى صدرها، وأحاطته بذراعيها، والشاب لا يستشعر الأمل والقوة والنشوة إلا عبر النظرات الآسرة من عينى امرأة ذات

عاطفة سواء أكان في الحقيقة أو في الخيال، والشُّيَّب برغم انحناءة الظهر والعكاز والداء ينظرون في حنان، ويتلمسون الأمل الغارب في حسرة.

عالم المرأة والرجل مشترك.. شيء واحد.. ارتباط ضروري مهم.. وأنا أعيش بلا امرأة.. نظراتي الخبيثة تتسلل إلى وجه الممرضة الوسيم الأسمر.. وإلى شعرها الفاحم الناعم، وإلى عينيها الواسعتين المكحولتين بكحل رباني.. أشعر لمجرد قربها بقطرات من الماء تنسكب على ظمئي الخالد.. ولا شيء غير ذلك، فأنا مؤدب خجول، أحترم التقاليد وأتمسك ببعض القيم الدينية.. لكن بداخلي ألف شيطان أحاول جاهدًا كل لحظة أن أكتم تمردها، وأجهض وساوسها الآثمة.. أحاول أن أخمد في نفسي صراخ الحيوان وأحاول الصمود ضد الطبيعة والغريزة.. والواقع.. أشعر بحلاوة الانتصار.. انتصار!! أي انتصار أأضحك على نفسي؟ إنه انتصار يحوطه الحرمان ويمازجه التشهي والجوع والظمأ والأرق والنوم.

ودخلت الممرضة «فاتسالا» مرة أخرى وأنا أرتجف من البرد.. يا لها من فتاة! لماذا تكرر الدخول والخروج في هذا اليوم المنذر بالمطر، هي تعلم أنني أنشد الدفء وأصارع

الحرمان . . إنها تتحدانى ، هتفت بنبرات حانقة غير متوقعة منى ، ولا تتناسب على الإطلاق مع ابتسامتها الحلوة . .

- «ماذا تريدين منى؟» هى الأخرى مؤدبة ، جاءت من بعيد من ولاية «كيرالا» تبحث عن القوت والحياة لها ولأهلها . . استغربت لهجتى المفاجئة التى ليس لها ما يبررها ، لكنها أصرت على الابتسامة وإن احمر وجهها خجلاً ، وقالت : «رجل من الشحوح» أمره عجيب ، الشحوح يسكنون الجبال المحيطة برأس الخيمة ، وهم قبائل غريبة الشأن فى كثير من تصرفاتهم ، لهم لهجة خاصة . . عربية لكنها صعبة الفهم كثيراً . . كيف هبط ذلك الرجل من الجبل ، وكيف عبر الصحراء العاصفة المتربة فى هذا اليوم الذى لا يتكرر فى مثل هذه البلاد؟

- «فليدخل . . » .

ونظرت إلى «سماعتى» وجهاز الضغط ومقياس الحرارة ، وخافض اللسان ، وقلت محاولاً التخفيف من لهجتى الحادة التى ليس لها ما يبررها :

«لعله يريد دواء يقوى «الهمة» . . من أجل زواجه من فتاة صغيرة . . » .

ضحكت الممرضة ، وأحنت رأسها خجلاً ، ثم أعطتنى ظهرها وانصرفت إلى الخارج .

وأخذت أفكر فى الرجل القادم من قبائل الشحوح وفيما قالته الممرضة عنه، فالناس هنا يهتمون بالجنس أيما اهتمام، هو عنوان القوة والرجولة والشرف والكبرياء، رجل بلا قوة بمعنى أنه بالميت أشبه. . وأن العار يلاحقه. . الرجال يظنون أن حيويتهم يجب أن تظل صامدة حتى النهاية. . وهم يبحثون عنها لدى القادمين على ظهور السفن القادمة من شواطئ آسيا وإفريقيا ويرسلون الروبيات ليشتروا كميات من أى مكان فى العالم. . وأنا ذاهب إلى الصيدلى كل مساء أطلب منه قرصًا منومًا أو جرعة من «البروميد» تهدئ الأعصاب، سمعته يصرخ بصوت واضح:

- «على زيد زيدون».

- «تشرفنا. . ماذا بك؟».

- «ليس بى شىء. .».

- «آه. . فهمت. . تريد حق الهمة».

ضحك الرجل وقال دون أن يزايله شحوب وجهه:

- «ابنتى فى حالة خطرة».

- «أين هى؟».

- «هى قريبة جدًا لدى سفح الجبل».

شَهقت من الدهشة، كيف تكون قريبة، وفى الوقت نفسه عند سفح الجبل؟! تناقض ساذج يبعث على الضحك، وعلى الغيظ أيضًا. . فى مثل هذا اليوم. . والصعود إلى الجبل أمر يضايق. .

- «لا تغضب يا دكتور معى سيارة. . استأجرتها من مالى. . ! إنها ابنتى الوحيدة. . رفضت أن يفحصها أحد من القبيلة. . حتى النساء أبت أن يقتربن منها. . وذات يوم. . من سنين بعيدة ماتت أمها. . وأنا لا أريدها أن تموت. . ».

قلت وأنا أنقر على الطاولة التى أمامى. .

- «على زيد زيدون؟».

- «نعم. . ».

- «حسنًا».

ثم استدرت صوب الممرضة، وهتفت بالكاتب، وطلبت منهما أن يسجلا اسمه، وأن يحاولا التأكد من شخصيته، وعزمت على أن أخبر الشرطة قبل رحيلى، من يدرى؟ يجب أن أحتاط لكل شىء، علمتنى الأحداث- وخاصة السياسة- منها أن أثق فى الناس بقدر، وأن أتحفظ وأحذر، لن أخسر شيئًا.

قلت له والسيارة منطلقة بنا، تعلو وتهبط فوق طريق رملى متعرج كثير المطبات والمنحدرات:

- «مَنْ شيخ قبيلتكم»؟

رفع رأسه فى كبرياء وشموخ، وقال:

- «أنا».

هتفت فى دهشة: «أنت!».

- نعم.

نظرت إلى قدميه الحافيتين، ولحيته الكثة، وثيابه المغبرة، وغطرته، وعقاله القديمين، وقسته بنظراتى المستغربة، وقلت ثانية:

- «أنت»؟!

- «نعم.. قبيلتنا فوق الجميع.. حرمها آمن.. لا يستطيع أى غريب أن يمس شرفها.. نحمى عزتنا بسيوفنا.. لا نخضع لأحد..»، وضحك ثم قال فى مكر:

- «لا تنظر إلى قدمى هكذا.. إن لدى حذاء جديد لا ألبسه.. وأحمله تحت إبطى فى المناسبات.. لا أدرى لماذا تهتمون كثيراً بالمظاهر.. على زيد زيدون سيد الجميع، وقبيلته

تتحرك وراءه بإشارة واحدة . . لأنهم يثقون فيّ ويحترمونني، وكان أبي مثلي . . !!».

ونزلت السيارة منحدراً شديد الانخفاض فارتجت بنا رجة شديدة مما جعل المقعد يقذف بنا إلى أعلى فاصطدمت رءوسنا بسقف السيارة. فصرخت «آه» بينما ضحك علي زيدون، وقال:

- «إن الإبل مريحة جداً».

قلت: «لكنها لم تعد تصلح لهذا الزمان».

قال باسمًا:

- «لا دخل للزمان، ظروف المكان هي التي تحدد . . ».

هززت كتفيّ في غير قليل من السخرية، وقلت:

- «الزمن أقوى، واعتراضك لا يغير من الحقيقة . . ».

- «سنرى . . ».

عندما بلغنا سفح الجبل توقفت السيارة، ونزل شيخ القبيلة، ثم تبعته دون سؤال، ووجدته يشق طريقه عبر مسارب الجبل.

الطريق ضيق يفرشه حصى صغير، ومستوى الطريق يرتفع بنا كلما تقدمنا، وشعرت بالدفء يسري في جسدي لما أبذله

من جـهـد حتى إن بعض قطرات العـرق أخـذت تلمع فـوق جبـهتى، وحذائى ناعم أنيق ينزلق بى فى المواضع الصخـرية التى تخلو من الحصى أو الرمال، قلت:

- «هل البيت بعيد؟».

- «بل قريب جدًا..».

ثم ضحك واستطرد:

- «هأنتـذا ترى أن المكان يحدد وسيلة المواصـلات.. هذا الطريق لا تصعده سيارة ولا يسير فيه حتى جمل أو حمار»..

قلت:

- «لكن إمكانات العصر تستطيع أن تشق الصخر، وتسوى طريقًا رائعًا..».

هز كتفيه فى سخرية.

- «ليس لدينا منها شىء..».

أشرقت الشـمس، وبدت زرقة السـمـاء كابتسـامة حلوة، كقلب منشرح يفيض بالأمل والحب، النظر إليهـا يبعث على الرضى والسعة.. والسعادة..

صفـاء السمـاء يثير فى نفسى ذكريات جـميلة عن الحرية والآفاق المفتوحة حيث لا أسوار ولا غيوم.. وأنا بطبعى أكره الظلام والغيوم..

قلت لرفيق الطريق:

- «تحسن الجو كثيراً».

قال:

- «ابنتى تلتقط أنفاسها بصعوبة بالغة.. أخاف أن تموت..».

- «إنك تفكر فى شىء آخر».

- «وجهها قد اكتسى بزرقة مخيفة.. عيناها تحملقان فى ضراعة..».

- «لا تقلق.. الأمر هين بإذن الله..».

حاولت أن أصرفه عن التمادى فى هذا التفكير المقبض الحزين، فقلت:

- «انظر إلى السماء..».

- «ليس فيها ما يبهج».

- «عجبًا!! أتكره الدفء والنور؟..».

قال وهو يلوح بيده مستغربًا:

- «المطر حياتنا يا رجل..».

ما أغبانى! كثيراً ما أتعمق ذاتى، وأحكم من وجهة نظرى

وأنسى الآخرين، ربما كان هو السبب فى بعض حماقاتى السياسية، ومتاعبى الاجتماعية، إننى أرى الآن مقاييس جديدة للجمال والسعادة . . هو يرى الجمال فى المطر . . يربطه باحتياجاته ولقمة عيشه ولا يجرده من ظلاله وروافده، وأنا أرى الجمال فى الشمس والصفاء وزرقة السماء . .

إننى أتعلم من هذا الرجل الشحوحى أشياء جديدة، أتلقاها منه بهدوء ورضى؛ لأن كلماته تخلو من العنجهية والاستعلاء وادعاء الحكمة، إنه أستاذ بسيط، ولا يشعر بتلك المكانة، «فيلسوف» وإن لم يسمع فلسفة من قبل . . وماذا تهم المصطلحات . . المهم الحقيقة ولا يهم الوعاء الذى تصب فيه ولا الألفاظ التى تحملها، ولا العنوان الكبير الذى تنضوى تحته . .

سمعته يقول، وهو يخطو فى ثقة دون أن يبدو عليه آثار الإجهاد:

– «فى الحرب نموت ولا نخاف، نقتحم المخاطر دون أن نفكر كثيراً فى العواقب . . لكن المرض شىء آخر».

تفتحت أذناى وقلبى وعقلى، وقلت:

– «كيف؟!».

ضحك فى براءة، وقال:

- «لا أدرى. . ها أنت ترى أن قلبى يتـــمـــزق من أجل ابنتى. . وأنا منذ عام أصابتنى حمى مستعصية. . كنت أرتعد لمجـرد كلمـة الموت، وعند خـوضى المعـارك لا أرهـب الموت مطلقًا. . أتعرف أنت سببًا لذلك؟!».

لم ينتظر جوابى، وإنما استطرد قائلاً:

- «ربما لأن الإنسـان ليس شيـئًا واحـدًا. . إنه كل يوم فى حال».

هززت رأسى وأنا أستمع لذلك الفيلسوف المتواضع، إن كلمـاته قـد لمست قلب الحـقيـقـة، وهل تعلم النفس رأيًا غـيـر ذلك؟

إن الإنســان عـاطفـيًا مـجـمـوعـة من الحـالات النفسـيـة المتنوعـة. . الإنسـان المحـارب غـيـر الإنسـان المريض، هكذا يلتقط العلماء الحقائق الأزلية. .

إننا أكـثـر من نصف ساعـة فى قلب الجبل، وبعض الأغنام تنطلق بلا راعٍ، تلمع الحشائش الجبلية، ترفع إلينا رءوسها فى جمود وبلادة، ثم تعود إلى بحثها عن الطعام. . لو مر القيصر نفسـه لما تغـيـرت نظرة الأغنام، ولما قللت من انهـمـاكـهـا فى البحث عن طعامها.

تمتمت قائلاً:

- «طال الطريق يا شيخ . . » .

- «قلت لك البيت قريب . . » .

يجب ألا يتكرر غبائى مرة ثانية ، الزمن بالنسبة له غير الزمن بالنسبة لى . .

نصف الساعة أنظر إليه وكأنها فترة طويلة كالطريق الذى أبذل جهدًا شاقًا فى قطعه . . لكن النصف ساعة لديه . . لحظة . .

- «ابنتى هذه أحبها وأكرهها . . تصور ! ! » .

- «كيف ولماذا؟ ! » .

- «ترفض الزواج من ابن عمها . . إننى لا أقبل اعتراض النساء . . لكنها فى الوقت نفسه ذات خلق و إباء . . هى بحق صورة لكبريائى ومكانتى . . » .

نظرت إلى ملابسه الرثة القذرة وأقدامه الحافية ولحيته المهملة وكدت أضحك ، لكنه عاجلنى قائلاً :

- «ومع ذلك ، فأعتقد أنها لا بد أن تتزوجه . . » .

توقفت عن المسير لألتقط أنفاسى وأجفف عرقى وأشعل سيجارة ، وأعطيته واحدة فشكرنى - مبديًا عدم رغبته فى

التدخين أثناء السير- قلت وأنا أقتعد صخرة ملساء بللها المطر:

- «لكننى أخالفك الرأى لم لا تدعها تتزوج مَنْ تشاء. .».

مسح على لحيته قائلاً:

- «طاعة الرجال للنساء خراب ودمار. . وخاصة فى مثل هذه الأمور. .».

- «إنه أمر يخصها يا شيخ. .».

حملق بعينيه الحادتين السوْداوَيْن قائلاً، وهو يشير بإبهامه نحو صدره:

- «يخصنا نحن الرجال. .».

- «الدنيا تغيرت كثيراً. .».

- «لكنهن دائمًا ناقصات عقل ودين. . وللقبيلة أصول تسير عليها منذ القدم. .».

قلت فى شرود:

- «القانون؟».

- «أجل. . نموت ولا نسطو على كرامة الأصول التى توارثناها. .».

مضيت فى شرودى قائلاً :

- «أنا عانيت الكثير من القانون يا على بن زيدون . . كنت أحترمه بشدة . . لأنى عصرى واعٍ وحر . . لكن وا أسفاه . . كان الطاغية يسوقنا إلى سجن رهيب ، ويفعل بنا ما يشاء دون أن يشعر القانون ولا سدنتُه الموقرون . . القوة يا علىّ هى التى تصنع ما تشاء من قوانين» .

ثم التفت إليه قائلاً :

- «صدقنى إن قانونكم . . أعنى الأصول التى تتحدث عنها . . أجدر بالاحترام لأنكم- مهما كانت طبيعتها- لا تخرجون عنها . . قد يكون فيها قسوة أو غرابة . . لكنكم تطبقونها» .

قال مندهشًا :

- «وما شأن الطبيب بالسجون؟» .

نظرت من حولى فلم أجد غير القمم والوديان ومسارب الجبل وبعض الكهوف ، وأغنام وماعز . . وبعض النباتات الخضراء القميئة التى اغتسلت بماء المطر الصافى ، وقلت :

- «لقد طال الطريق . . » .

قال بإيجاز ، وهو يرفع استئناف المسير :

- «لقد أوشكنا . . آه . . كلما تذكرتها أشعر بغم شديد . . تصور عندما أراها تلهث وتحاول أن تجذب الهواء إلى رئتيها بصعوبة . . أشعر أنا الآخر باختناق؟!» .

مسكينة مريم . .

ولاح من بعيد ثلاثة من الرجال يقفون كالصقور على إحدى الروابى، وقد علقت البنادق فى أكتافهم . .

●●●



٢

انزوت فى ركن من الغـرفـة. . كنت أرى بريق عـينيـهـا الخائفتين الضارعتين يخترق الخمار الأسود الشفاف. . كانت لم تزل تلهث دون أن تصدر منها كلمة واحدة، وقال على زيد زيدون بغمٍّ ممتلئ. . :

- «هذا طبيب. . لا داعى للخجل. .».

ثم انصـرف، بينمـا دلفت امـرأة عـجـوز، لـم أفـهم كلـمة واحدة من ثرثرتها؛ لأن اختلاف لهجتها، وأسنانها المهمشة، والبرقع السميك، وتهيبى من الموقف تآزرت كلها فى عدم إدراكى لما تقول. .

رفعت مريم خمارها. .

لم أجد زرقة مخيفة كما صوَّر لى أبوها لكنى وجدت وجهًا أسمر، تضرج بحمرة فاتنة، وأهدابًا سمراء تحرس عيونًا سوداء حذرة، وشفتين دسمتين ترتجفان، كل ملامحها تكتب

شعرًا من الجمال الوحشى القاتل . . حقيقة أن للوجه دورًا كبيرًا فى التأثير ، وتحديد درجة الشخصية وقوتها . . فمن الوجوه ما أقف أمامه خاشعًا ، ومن الوجوه ما ينتزع الابتسامة من بين شفتين يبعث على عدم الاهتمام .

ابتسمت فى توتر . . وهمست :

- «لا تخافى يا مريم . . » .

أدارت وجهها صوب الحائط المغطى بعشرات الصور لكثير من الزعماء ونجوم السينما وإعلانات البضائع ، وقالت فى شراسة محببة :

- «أنا لا أخاف . . » .

وقلت للعجوز :

- «ساعدينى لكى أفحص صدرها بالمسماع» .

تكورت مريم على نفسها ، وتشبثت بثيابها وهتفت فى نفور :

- «يا للعار ! ! كيف؟ أنت طبيب وتعرف» .

اقتربت منها فى ود وربت على كتفها فى هدوء ، وأنا أقول :

- «الطبيب ليس منجمًا ، ولا ساحرًا . . ولا بد من وضع المسماع على صدرك . . » .

أخذت تسعل، اجتاحتها نوبة من السعال الحاد والجاف وكنت أسمع عن بعد الصوت الموسيقى المميز للربو ثم قالت:

- «مستحيل».

وفتح الباب فجأة، ثم دلف أبوها مكفهر الوجه، وانقض عليها وجذبها من ذراعها وصرخ مهتاجًا:

- «أنت لا تعلمين ما تكبده الطبيب من مشقة».

تدخلت بلطف، ورجوته أن يترك الأمر لى، فانصرف وهو يحذر، وتأكدت من إغلاق الباب وقلت للعجوز: «هيا» بينما استسلمت مريم، واستلقت على ظهرها وكشفت عن صدرها الذى زاد معدل علوه وهبوطه..

الدموع تبلل أهدابها، ووجهها متجه إلى الجانب المقابل، وثورة مكبوتة ترتسم على محياها ونظراتها، وتأكدت من الرئتين والقلب، ثم قست ضغط الدم، ودسست مقياس الحرارة فى شفتيها وحاولت جاهدًا أن آخذ تاريخ المرض، وتمتمت فى رضى وابتسام:

- «حسنًا كل شىء على ما يرام يا مريم..».

همست وقد ألفت الجو، وجففت دموعها:

- «أكاد أختنق..».

- «أعرف. .».

وبحثت عن المحقن فى حقيبتى، وملأته بالدواء، وتمتمت وأنا أتناول ذراعها بمساعدة العجوز التى لم تكف عن الثرثرة، وقلت:

- «إن هى إلا دقائق معدودة، وستشعرين بالراحة. .».

جلست إلى جوارها على سجادة قديمة وأخذت أجاذبها أطراف الحديث، وكلها تدور حول المرض، ثم بحثت عن دواء مهدئ للأعصاب، وآخر مضاد للحساسية فوجدتهما، فى مثل هذه الحالات وفى تلك الأماكن النائية يجب أن يحتاط الطبيب، حتى يوفر على نفسه وعلى المريض الكثير من المتاعب، ولن يكون فى زيادة التأكد وإعطاء مزيد من الأدوية أية أضرار. .

وخرجت العجوز لتحضر كوبًا من الشاى ووجدتنى أقول بدون تحفظ لا أدرى لماذا:

- «قال أبوك إنك ستتزوجين عما قريب. .».

رمتنى بنظرة لم أزل أذكرها جيدًا تجمع فيها كل ما يمكن أن يحمله قلبها من رفض وإصرار، وقالت:

- «هذا لن يكون. . الموت أهون. .».

ثم أردفت وهى تبتلع ريقها :

- «ذلك هو سبب بلائى ودائى . . » .

- «الأمر دقيق وحساس . . والعريس ابن عمك . . » .

همست فى تحدٍّ :

- «البعير لا يأكل إلا ما يروق له» .

وأدركت أن معدل تنفسها قد أصبح طبيعيًا وأن وجهها قد تكلل بالإشراق والاطمئنان برغم ما يعتريه من غضب خفيف ، وقلت وأنا أضع أدواتى فى الحقيبة :

- «أتمنى أن أراك مرة ثانية» .

- «لماذا؟» .

- «أعنى أن تحضرى إلى المستشفى ، وسأعطيك كمية من الدواء تستعملينها عند الضرورة . . » .

أضاء وجهها بفرحة طفولية وبدا أن الفكرة راقت لها ، وقالت باسمة :

- «إننى أحب الذهاب إلى رأس الخيمة إن فيها العجائب . . رأيت فيها السينما ، ألم تر السينما؟ لم أكن أفهم كلمة واحدة لكنها كانت تسلية جميلة . . رأيت نساء جميلات . . أغنيات . . وبحورًا . . وجبالاً . . وحيوانات . .

ورجالاً يتصارعون ويخطفون النسوة. . إننى لم أزل أحلم بتلك الليلة. . لكن أبى يمنعنى من الذهاب ثانية ويزعم أن السينما أورثتنى الجنون، وصمتت برهة ثم شردت إلى بعيد، وقالت وهى فى قمة النشوة والسعادة:

- «لسوف آتى إليك، ما عليك إلا أن تخبر أبى. .».

- «إن تكملة العلاج أمر ضرورى. .».

رمتنى بنظرة امتنان. . لم يفتنى ما تحمله تلك النظرة من مشاعر الشكر والتقدير، وكانت صفحة وجهها توحى بالبراءة والطفولة والعذرية، لكن مسحة الجمال الوحشى الكامنة فى سمرة الوجه وسواد الأهداب، وأعماق العيون لم تنطفئ لحظة واحدة حتى فى ثورة الحزن، والدموع ظلت متوهجة حية. . وشدت على يدى بقوة عند الرحيل. . تمنيت أن يطول الحديث. . لكن كيف؟ كنت دائمًا أعجب أشد العجب بالرحالة والمكتشفين، وأولئك الذين اكتشفوا القمم، والأرض، وأقوامًا على الفطرة. . أى إحساس بالروعة والفخار والانتشاء كانوا يحسون به وهم يرون عالمًا جديدًا بكل ما فيه، وقد زالت عنه الطلاسم والحجب!! طالما حلمت بأرض ليس فيها سياسة وسجون وذئاب بشرية. . أبسط اللباس، أبسط الطعام. . ثم الحرية. .

وعزمت على المسير لكن شيخ القبيلة أبى وأقسم أن لا بد من ذبح الخراف، والقيام بالواجب . . واعتبر رفضى إهانة بالغة لا تغتفر . . ولم يكن هناك مفر من الانتظار، ووجدتهم- أى رجال القبيلة- يعوون كالذئاب . . ما هذا؟ فشرح لى أحد المطاوعة الأمر- وهو «حسن بن محمد»، وقال: إن هذا إعلان عن وجود ضيف عظيم نحرت من أجله الذبائح . . وأدركت منذ البداية أن هذا المطوع يرمقنى بنظرات حاسدة حاقدة، ويحاول أن يسخر من الطب والأطباء، ويؤكد أن معلوماته وخبرته أكثر بكثير منى ومن أمثالى، وأخذ يروى عشرات المعجزات التى تمت على يديه، ولما سألته: لماذا لم تُشْفَ مريم؟؟ أجاب:

- «إنها فتاة غربية . . لم تتناول عقاقيرى عن إيمان . . تسخر من كل شيء . . ولا تحترم أحداً . . لو كنت مكان أبيها لقطعت رقبتها . . هذا هو الدواء الناجح . . ».

ولم نبدأ فى رحلة العودة إلا بعد أن أكلنا وشربنا القهوة . . هذا وقت الأصيل، والسحب المنقمة بالوشى الذهبى تتوج الجبال العملاقة . . والبحر من بعيد يبعث بهدير أمواجه ذات الصدى المترامى . . وقطعان الإبل والشاء تعود أدراجها إلى حظائرها . . وعلى زيد زيدون يتحدث . .

- «إن خميس ابن عمها فتى لا بأس به، وهو ابن عمها أولاً وأخيراً، أما ذلك الصعلوك المدعو عبد الله، فهو فتىً تافه لا قيمة له، لم يعرف عنه سوى الجبن والاستهتار والتبطل.. إنه منا ونحن منه، لكن لا يصح أن يتزوج من ابنتى.. قال لى - رحمه الله - إن جده «عبد الله» لأمه كان من جنس العبيد.. ومريم ابنتى طيبة القلب يخدعها المظهر الكاذب، والكلام المعسول..».

عبد الله خواء فى خواء، كلما تجمّع لديه ريال أو أكثر.. هبط المدينة ليلهو ويعبث.. لقد نفقت حيواناته كلها لإهماله.. أتعتبر أمرءاً بلا حيوانات من عداد الأصلاء؟ مستحيل.. ماذا أقول؟ إنه أقذز مما يتصور عقل.. وهى الغبية تغض الطرف عن كل ذلك.

كلما عددنا لها مساوئه، ازدادت تمسكًا به.. الحقيقة أنا لا أقسو عليها لأنى أحبها بشدة.. لكن عندما يجد الجد، وتحين الساعة سأجدع أنفها وأرغمُها على فعل الصواب..

كان شيخ القبيلة يتكلم، وبرغم متابعتى لكل ما يقال إلا أن وجه ابنته ظل عالقًا بخيالى، الوجه الأسمر الفاتن بجماله الوحشى المتحدى، وببساطته القاتلة.. إنها تذكرنى بأغنية غجرية صاخبة.. تنضح بالحرارة.. والعرق.. والثورة..

فى فيلم من أفلام الغجر لا أدرى أين رأيته . . ربما أكون قد رأيته فى رأس الخيمة .

وقال على زيد :

- «أذكر أنه كان لدينا ديك شرس ودائمًا ينشب أظافره فى الدجاجات المسكينة حتى يدميها ، لكن الدجاجات كانت دائمًا تحوم حوله ، مع أنها تخافه . . وتعاود الكرة والدماء تسيل منها . . الحقيقة برمت بهذا الوضع . . وذبحته . . » .

انتفضت فجأة لكأنما باغتتنى الكلمة القاسية وصرخت :

- «ذبحته ؟» .

- «أجل . . الديك . . » .

ثم قهقه قائلاً :

- «المصيبة أن الدجاجات كانت تبحث عنه فى اليوم التالى . . وترفع عقيرتها بالصياح . . وكأنها تندبه . . صدقنى لم أطق هذا المنظر . . ولاحظت أن عدد بيضها قلّ كثيراً . . وأنا أكره التمرد . . لقد أمرت ببيعها كلها وقررت أن نبدأ بتربية جيل من الدجاجات . . » .

وعاد يقهقه ثم قال :

- «لماذا لا تتكلم؟» .

- «إننى قلق من أجل مريم. . ».

- «لماذا؟ لقد أصبحت فى صحة تامة».

- «تحتاج لمداومة العلاج. . ».

- «سأبعث لك كل أسبوع بمن يحضر لها الدواء. . ».

لوحت بيدى معترضًا:

- «لا. . يجب أن تأتى بنفسها حتى أتمكن من فحصها. . ».

هز رأسه ثم قال:

- «أتعتقد أنه من الضرورى تأجيل زواجها؟».

- «بالطبع. . ».

وعدت إلى المستوصف وقد تلفعت المدينة بالظلام، الحارس لدى الباب يتثاءب، ويغالب النوم، والممرضة الهندية تقف فى حجرة الاستقبال لتعسف مريضًا، وسددت إلىّ نظرات ذات معنى، وقالت:

- «لقد تأخرت كثيرًا».

قلت:

- «أنت تعلمين يا «فاتسالا» أن المكان بعيد».

- «لقد قلقنا عليك».

هززت رأسى شاكراً وأنا أرتمى على المقعد منهمكًا . .
«فاتسالا» فتاة غريبة، ليست على غرار مثيلاتها الهنديات، فبرغم ذكريات الفقر والنكد والغربة، إلا أنها تهتم بملبسها فى العمل وخارج العمل، تلبس «السارى» الحريرى الجميل إذا خرجت بعيداً عن أسوار المستشفى، وتضيق بطول البقاء فى مسكن الممرضات، ويحلو لها التنزه من آن لآخر، أشعر فى كثير من الأحيان أنها مكبوتة، وأن لها تطلعات كثيرة تحاول جاهدة أن تخفيها، لكن نظراتها المعبرة، وما يفلت من لسانها من كلمات تشى بالكثير مما يعتمل فى داخلها.

إنها مسيحية لكنها ليست متدينة، وهى تأنس لكثير من نساء ورجال «رأس الخيمة»، وتزورهم أحيانًا فى بيوتهم، حتى ثارت حولها الشكوك ظلمًا، ليس فى سلوك الفتاة ما يعيب فى الحقيقة، لكن زيارتها وتبسطها فى الحديث يجلب لها الظنون فى مجتمع مغلق ينظر إلى مثل هذه الأمور بعين الشك، وأنا دائمًا أنظر إليها باحترام ومودة، سمرتها الفاتنة تشدنى إليها، لكنى أقف دائمًا قبالة نفسى كالحارس اليقظ.

يا ويحى إن سقطت سقطة صغيرة، ستنهش الألسن لحمى، وتتناول الأفواه سيرتى، ويقضى على مستقبلى قضاء مبرمًا . . وأنا طبيب، ويا ويل الطبيب إذا لاكت الألسنة ذكره بما يخجل . . !



٣

أحيانًا أجدنى وحيدًا فى مسكنى إذا حطَّ المساء، فأستشعر ضيقًا بالغًا، وأكاد أختنق، يخيل إلىَّ أن سقف الحجرة التى أجلس فيها وحوائطها الأربعة سوف تطبق علىَّ وتسحقنى فأسارع بارتداء ملابسى، وأذهب إلى غرفتى فى المستشفى ومعى الراديو وبضع صحف ومجلات وكتاب، وأجلس هناك مستمتعًا بمن حولى من العاملين فى المستشفى، بعضهم ينقل إلىَّ أحدث أخبار الإمارة، وأنباء العراك والزواج والطلاق وتجارة الأراضى، وتوقعات ظهور البترول، أو يروى لى طرفًا من تاريخ الإمارة القريب، وبعض المعارك التى لم ينقض عليها أكثر من عشرين عامًا، ويذكر لى عديدًا من الأسماء وخليطًا من القبائل، وكثيرًا من الأماكن. . وأنا لا يكاد يعلق برأسى إلا القليل. . لأن حفظ الأسماء شىء صعب بالنسبة إلىَّ. .

وكثيرًا ما تأتى «فاتسالا» تسألنى عن بلدى. . عن

حضارتها . . عن بعض الأماكن التاريخية فيها ، وأنا أحاول جاهدًا بلغة إنجليزية متضعضعة أن أروى لها ما تريد . . وكثيراً ما يأتى «الصيدلى الهندى» فيرمقها بشىء من الغيظ . .

- «انظرى يا «فاتسالا» . . إن بيتر يبحث عنك» .

فتهز رأسها دون اكتراث :

- «إنه إنسان معقد . . يعذِّب نفسه بنفسه» .

فأضحك قائلاً :

- «لم لا ترحمينه؟ . . إنه يحبك» .

فترتسم على وجهها علامات الضيق والاستنكار وتشهق مستغربة :

- «ماذا؟ لم يخطر ببالى شىء من هذا» .

- «فى الغربة يحتاج الإنسان إلى رفيق . . إلى ذراع تشتبك بذراعه» .

قالت عاتبة :

- «الهنديات على طول الساحل . . » .

ثم التفتت إلىّ قائلة :

- «وأنت . . لِمَ لم تفكر فى شريكة لحياتك؟» .

ضحكت قائلاً :

- «أنا أبحث فى كل اتجاه».

- «لو كنت جاداً لوجدت».

تنهدت قائلاً : «يا ليت».

ولعبت بمفاتيح الراديو الكبير أمامها، فخرجت منه أغنية هندية جميلة، موسيقاها حلوة تتغلغل إلى الأعماق، وتهز المشاعر، قلت دون أن أفهم كلمة واحدة منها :

- «أغنية رائعة..».

- «لكنك لا تفهم كلماتها.. بيتر وحده يدرك معانيها إلا أنه فى الخارج».

قلت : «اشرحى لى معانيها».

خفضت من صوت الراديو، وأخذت تقول بلغة إنجليزية واضحة :

- «نبراتك كالنسيم الرطب.. لكنها تشعل روحى..

ابتسامتك تورق بالحب ثم الأمل..

وعيناك مدينة مسحورة تبهرنى فيها الأحلام والأشواق.. لكن

كلمات الفراق تبعث القشعريرة فى جسدى..

فتثلج أطرافى..

وتبكى أغنياتى..

ويرجف قلبى لعصفور جريح.

فلتخدعنى إن كنت راحلاً.. وحدثنى دائمًا..

عن الحب والأحلام والورود الجميلة..

واملأ قلبى بروعة المستقبل..

حتى إن كنت تنوى هجرانى..

يا حياتى الأبدية..».

وأغلقت «فاتسالا» الراديو، وأسرعت خارجة، وبقيت مسمرًا للحظات وأنا أهيم فى جو الأغنية المثير، ولم أفق إلا على خطواتها وهى تقطع الغرفة، ثم تتوارى فى ظلام الباحة القريبة من سكن الممرضات.

ضحكت من نفسى وأنا أغرق فى أحلام غريبة، أتصور أن «فاتسالا» توشك أن تكون لى زوجة، وأتصور أننا معًا ونحن نذهب إلى قريتنا البعيدة فى إحدى العطلات السنوية، وأتخيل جدتى وهى تتحسس جسدها النحيل وترمى وجهها الأسمر الفاتن، وأتخيل الدهشة التى تعلو وجوه أهل القرية.. إن

الأمر لو تم على هذه الصورة المتخيلة، فسيكون لا شك حدثًا كبيرًا من أحداث القرية التى لا يمكن أن ينساها أحد.

جاءنى «بيتر» الصيدلى فى اليوم التالى، وقال مكفهر الوجه:

- «إن «فاتسالا» تبيع نفسها للشيطان».

قلت وقد صدمتنى كلماته:

- «أعقل يا بيتر».

- «إنها على علاقة مريبة ببعض شباب الإمارة».

رددت فى انفعال:

- «لا أسمح لك بالتمادى فى هذا الافتراء».

- «أنت رئيسنا يا دكتور ويجب أن تكون على علم بما يجرى».

- «وما دليلك؟».

- «كلام الناس.. وخروجها المستمر فى أوقات الفراغ».

- «حسنًا دع هذا الأمر لى».

قال وهو يهم بالخروج:

- «أخشى أن يكون الأمر قد بلغ رئاستنا فى «دبى» وقد ينالك شىء من اللوم والعتاب، بل قد يرمونك بالتقصير».

وفُتِحَ الباب فجأة، واندفعت «فاتسالا» دون انتظار، كان وجهها قد اتخذ وجه نمرة شرسة، فتقدمت نحو «بيتر»، وجذبته من رباط عنقه وصرخت باكية!

- «أنت كاذب . . إذا كنت أنا على هذه الصورة من العفن والانحطاط فلم أتيت تطلب منى الزواج . . أمس؟ . . ».

شحب وجه «بيتر» وتلعثم، وأخذ ينثر كلمات بلا معنى، يختلط فيها الاحتجاج والغضب بالاشمئزاز والخوف والارتباك.

وعادت تقول:

- «إننى حرة، ولن يستطيع «بيتر» ولا غيره أن يستعبدنى بألاعيبه، إنه يعرف حساسية هذه الأمور بالنسبة للمجتمع هنا، ويدرك أننى فى حاجة ماسة إلى وظيفتى، ومن ثم يلعب لعبته القذرة . . كى يرغمنى على طاعته . . ».

خرج «بيتر» فاقتربت منها وربت على كتفها فى ود وقلت:

- «هونى عليك مجرد تفاهات لا معنى لها».

- «هذا الثعبان يريد أن يبلغ مراده بأخس الوسائل . . إننى أدرك ماذا يقصد، يريد أن يسيء إلى سمعتى، ويلوث اسمى حتى يزورّ الناس عنى، وينفضوا من حولى فلا أجد أمامي

سواه . . فآتى إليه وكأنه الفارس المنقذ . . هذا الوغد أنا أفهمه جيداً» .

جففت دموعها قائلة :

- «وأنت مـا رأيك فى سلوكى الشـخـصى؟ إنه يهـمنى جداً . . » .

قلت ، والعرق يتصبب على جبينى :

- «لا غبار عليه» .

أشرقت عيناها بالفرحة وقالت :

- «هذا يكفينى . . » .

لم يمر الأمـر دون ضـجـة وحـسـاب فى المستـشفى ، لقـد استدعـيت «بيتر» بعد ذلك ، قـسوت عليه فى النقد واللوم ، وأفـهـمتـه أنى أدرك لعـبتـه القـذرة جـيـداً ، وهددته بالعـقـاب الصارم .

إن التسـاهل فى مثل تلك الأمور قد يـجلب علينا المتاعب الجمة داخل المستشفى وخارجها ، وشرحت له طبيعة الموقع الذى نؤدى واجـبنا فـيـه ، ومـا يجب اتبـاعـه من سلوك وتصرفات ، فأحنى «بيتر» رأسه فى أدب ، واعتذر عما حدث ، ووعد بعدم تكراره ، وكان واضحاً أنه نادم على كل ما جرى ، وكاد يخطف يدى ويقبلها وهو يصافحنى معتذراً .

ومضت أيام قليلة لم يحدث فيها ما يعكر الصفو، لكنى فوجئت ذات مساء بناطور المستشفى يدق باب بيتى فى هدوء، ويقول:

- «جئت لأشرب معك فنجالاً من القهوة».

وكان هذا شيء لا يثير أى غرابة، فالفروق بين الناس هنا قليلة، ومكانة الطبيب فى عمله فقط وليس له أى منزلة اجتماعية فى السلوك العام تختلف عن الآخرين وهم ينادونه باسمه مجردًا، وكذلك يتعاملون حتى مع الأسرة الحاكمة، يأخذون الأمور ببساطة دون تعقيد. . لا يلجئون إلى الانحناءات المبتذلة، ولا إلى عبارات التفخيم والتعظيم المتداولة، وأخذنا بعد فترة نرشف القهوة العربية، ثم قال حارس المستشفى:

- «ما كان يجب أن أخفى عنك شيئًا. . قلت لنفسى يا «عبيد» إن شرف الطبيب من شرفنا، وما يسيئه يسوؤنا، ومن ثم قررت أن أخبرك بالأمر».

بالطبع انتابتنى الشكوك، ولعبت برأسى الهواجس، وأنا لا أطيق الصبر، قلت فى ارتباك:

- «تكلم».

قال وهو يمسح لحيته الكثة:

- «هذه الملعونة».

لا أدرى لماذا وثبت إلى ذهنى على الفور صورة «فاتسالا»، فكأنما يحمل الإنسان فى رأسه جهازًا حساسًا يستطيع أن يحيل الشفرات إلى كلمات، ويترجم الغموض إلى وضوح، واستطرد «عبيد» فى هدوئه القاتل المثير:

- «يزعمون أنك تعشقها.. هؤلاء الغرباء لا كرامة لهم، ولا يحفظون النعمة، ويوقعون أنفسهم وغيرهم فى المصائب.. والإنسان منا ضعيف مسكين.. ولو كنت ملاكًا لاستطاعت هذه الشيطانة إغواءك».

اتهام صريح، وتسليم غريب بأن المحظور وقع، وتصديق لافتراءات لا أصل ولا أساس لها، قلت وأنا أرتجف من الغيظ:

- «معنى هذا أنك صدقت».

- «لا ذنب لى.. الناس هنا يقولون كلامًا كثيرًا».

- «لكنك تعيش معنا يا عبيد وترى كل شىء».

قهقه عبيد فى برود، وقال:

- «هم يزعمون أننى أتستر عليك، وأقبض منك الثمن مع أنك لم تعطنى درهمًا واحدًا..».

تفاصيل غريبة أخذ عبيد يرويها . . صرخت كالمجنون :

- «اخرج أيها الكلب . . » .

- «وما ذنبى؟ هل أخطأت إذ بلغتك ما يقوله الناس عنك لتحتاط لنفسك ، أو تأخذ حذرك . . » .

- «ولماذا لم تخبرهم بالحقيقة؟ أنت تعرف . . » .

قال فى غباء مثير :

- «قلت أسألك أولاً . . من أدرانى أن ما يقولونه غير صحيح . . ثم إن دفاعى عنك يجعلنى شريكًا فى الجريمة ، وأنا لا ذنب لى . . » .

انتفضت واقفًا ، ثم دفعته خارج الغرفة ، وظللت أدفعه عبر الصالة حتى شرفة البيت ، وأغلقت الباب ، وجلست أنتفض من الغيظ والحنق ، ماذا أفعل؟! كيف أتصرف؟ إن السكوت معناه الفضيحة والتشهير بى وبسمعتى وبمستقبلى ، آمنت عند ذلك أن للطغيان صورة أخرى .

كنت أظن أن الحاكم الظالم أو وزير الداخلية القاسى ، أو ضابط الاستخبارات المتعجرف ، كل هؤلاء هم الطغاة ، الطغيان مرتبط فى ذهنى بجهاز الحكم المستبد . . لكن اليوم أرى طغيانًا من نوع آخر . . طغيان الناس . . جمهرة

الشعب . . الشعب الذى لا يتأنى ولا يتروى، ولا يكلف نفسه مئونة البحث عن الحقيقة ويصدق أى كلام يقال له، ويطارد الشرفاء الأبرياء مثلى بشبح جريمة لم أرتكبها، وأنا أعيش فى كبت وضغط وحرمان . . وكيف أقف وحدى متحديًا هذا الزحف الرهيب الذى يريد أن يغتال شرفى وكبريائى؟

وبدا لى أن الحراب الغادرة تكمن لى فى كل مكان، وأن عيون الناس ترصدنى أينما سرت، وأن كل امرأة تدخل للفحص الطبى سوف تعاملنى بحذر، وقد تفسر حركتى البريئة بأنها عمل دنىء خسيس، بل إن «الغطاريف» من الرجال الشرفاء سوف يرفضون إرسال بناتهم وزوجاتهم إلى المستشفى، فماذا ستفعل رئاستى فى دبى، وما هو المستقبل الذى ينتظرنى! إن رأسى يفور غيظًا وكمدًا، وجو الغرفة قد امتلأ بدخان السجائر حتى أوشك أن أختنق . .

وأخذت أستعيد ما قاله عبيد . . رقص . . غناء . . خمر . . ليالى عربدة حمراء . . نزهات شيطانية فى قلب الصحراء . . لمسات الإثم والمجون . . ما هذا الكلام الذى لم أقرأ مثله إلا فى الروايات؟ هذه الأشياء صنعتها أحلام جائع محروم يستحق قطع رقبته . . وأخذت أدق على الحائط بقبضتى المتشنجة . . ثم أخذت أفكر بهدوء . . يجب أن أدرس الأمر

بعناية وأبحث عن مخرج . . وليس هناك من مخرج سوى أن أطلب نقل «فاتسالا» من هنا . . إلى إمارة أخرى . . لأنها تريد من قبل أن تنتقل إلى إمارة عجمان أو دبى حيث يسكن بعض أقاربها . . والنقل لن يسىء إليها . . سوف يحقق رغبتها، وفى الوقت نفسه سوف يريحنى من مشاكل لا حصر لها ولا عد، ولسوف تخرس الألسنة الظالمة، وستأوى الثعابين الضالة إلى جحورها، ويعود الهدوء، وسألح فى طلب ممرضة عجوز أو قبيحة الشكل . . هذا ما قررته وبعدها أتفرغ لحملة الأكاذيب التى شنها «الأعداء» ضدى، وأقضى عليها قضاء مبرمًا . . ولم أنم إلا بعد أن دبجت خطابًا كيسًا لبقًا لرئاستى أطلب فيها نقل «فاتسالا» قبل أن تفوح رائحة الفضيحة المفتراة وتنتشر الأقاويل النتنة إلى بعيد . .

●●●



استدعيت «فاتسالا» فى الصباح، وقلت لها:

- «كنت تريدين النقل، وقد وافقت على تحقيق رغبتك، ولسوف يتم ذلك فى أقرب فرصة..».

أخذتها الدهشة، وبدا الشحوب والضيق على وجهها، وقالت فى هدوء متوتر:

- «لكنى لا أريد النقل الآن».

صدمت برأيها، واضطررت أن أشرح الأمر بكل تفاصيله، وكم كانت دهشتى عندما سمعتها تقول دون مبالاة:

- «فليقولوا ما شاءوا.. إن التهمة إما أن تكون باطلة أو صادقة- فليثبتوا دعواهم إن أرادوا، وإلا فلن نرضخ لتلك الحرب السخيفة الظالمة.. إن رجلاً مثقفًا مثلك لا يصح أن يرضخ لهذه الافتراءات وإلا فلن تنجح طول حياتك..».

كان كلامها معقولاً من الناحية المنطقية الصرفة، لكنى اعترضت قائلاً:

- «يجب أن تدركى يا «فاتسالا» طبيعة المجتمع الذى نعيش فيه. . إن ما أثير حولنا ظلم بيّن. . لكن السخط العام ضدى يجب أن يعالج بطريقة مرنة، ولو كان فيها بعض الغبن أو الرضوخ لطغيان الناس الذى لا يستند على أية أساس. . ».

فكرت لحظات، ثم قالت:

- «أتدرى من أثار هذه العاصفة؟. . ».

- «مَنْ؟».

- «بيتر. . هذا الملعون. . ».

- «هذا الناعم الملمس. . الخانع. . الذى يتظاهر بالضعف والمسكنة».

- «لهذا أكرهه».

لم تمر كلمات «فاتسالا» عبثًا، لقد أثارت فى نفسى ذكريات قديمة تتعلق بحياتى السياسية السابقة، أذكر جيداً كيف كان الناس فى بغداد يكتسحهم الحماس، ويسيطر عليهم رأى معين، وكنت أجدنى أنظر إلى الأمر بعين أخرى غير التى ينظر بها الناس، فأتخذ موقفًا مغايراً نابعًا من تفكيرى الخاص،

ودراساتى وخبراتى الشخصية، وكانت الأيام تثبت أن رأيى ورأى الكثيرين مثلى أصوب من رأى مهرجى السياسة الذين تحركهم تيارات خفية، وأغراض خبيثة، فيخدعون الناس ويعبثونهم بما يلقنونهم من قيم فاسدة.. وكم جر علىّ رأيى الحر، وتصدى للغوغاء من مشاكل ومتاعب منها الاضطهاد والفصل.. أو الاعتقال أو تحديد الإقامة.. لكنى كنت أشعر بسعادة بالغة، وأنا أرى أننى كنت على صواب بعد فوات الأوان.. لهذا أثرت كلمات «فاتسالا» فىّ، وأثارت كامن التمرد فى أعماقى، وجعلتنى أغامر بتمزيق الخطاب الذى قضيت فيه ساعة وأنا أدبجه، وأرتب كلماته كى ينقلوها، وقررت مواجهة الزحف الظالم الذى اصطنع من الأكاذيب أسطورة مثيرة تنمو فى خيال المراهقين والمجرمين والتعساء.. كما تصديت للطغيان السياسى فى بلدى، يجب أن أتصدى لخداع الجماهير، وافتراءات الأعداء، وأصمد فى المعركة شجاعًا وليكن ما يكون.

وابتسمت «فاتسالا» فى سعادة وأنا أمزق الخطاب، لا شك أنها كانت ترمق تعبيرات وجهى، وما يطرأ عليها من تغيرات.. ولا شك أن استجابتى لطلبها قد غمر قلبها وروحها بنشوة كبرى.

●●●

«مريم» غزال لم يستأنس تمامًا، تركل بقدمها كل ما يرفضه قلبها، وهى تعرف سطوة التقاليد المرعبة، وتحترم الكثير منها، ولكنَّ هناك أمورًا تنكرها بشدة، لاتحاول أن تعمل عقلها فى تفسير ذلك، تنكرها وترفضها استجابة لعواطفها. . تحرق البخور وتتلذذ برائحته الجميلة، وتأخذ نفسًا عميقًا ثم تتطلع إلى الصحراء البعيدة المترامية الأطراف، وترى انطباق السماء على الأرض. . وتهتف:

«ماذا وراء الأفق من أسرار وأعاجيب. .».

وتثب إلى خيالها صورة الجنة الموعودة. . وفيها فتيات يلبسن الثياب الحريرية ذات الألوان البهيجة. . منسدلات الشعور تحت الأشجار الضخمة الخضراء. . يغنين ويطربن ويغتسلن فى مياه الينابيع المقدسة.

وفى خيالها ترتسم صورة عبد الله هو الآخر. . كالملك العاشق توشيه سلاسل الذهب، ويعبق من حوله البخور، ويخطر من حوله حراس القصر وحجابه وجواريه.

لقد خُلق عبد الله لا ليعمل ويشقى ويربى الماعز والأغنام والإبل، خُلق ليكون ملكًا بلا عمل. . ملكًا يضع أختامه على الأوامر العليا، ويأكل ويشرب وينتشى بخمرة الحياة. . قالت لإحدى قريباتها ذات مساء:

- «كانت مشاعرى نحو خميس ابن عمى ودود لا تشوبها شائبة . . وعندما أصدرتم الأوامر بالزواج منه، كرهته، أصبحت أمقت ابتسامته وكلمات التحية العابرة التى يلقيها علىَّ . . كل الصفات الجميلة التى تسبغونها عليه أمست فى نظرى نقائص . . وبقدر ما تزيدون فى الثناء عليه، يزداد نفورى منه . . فسيروا الأمور كما شئتم . . هذا ما حدث . .

أتدرين لماذا يظلم الناس بعضهم بعضًا، أو يجرمون فى حق أنفسهم؟ لأن الحرمان يحرقهم فيتمردون، ويتصرفون بحماقة، والناس يشتهون الحب والمال والسلطة . . عندما تحرموننى من الحب سأشعر كأنى متسولة لا أملك شيئًا . . إننى أفقد الحب أفقد كل شىء . . ولا يبقى فى قلبى متسع لغير الكراهية لكم . . ولكل الشحوح . . تقولين لو سمع أبى هذا الكلام لهشم رأسى . . حسنًا . . أنا لم أعد أخاف . . وإنى لخير لى أن يتهشم رأسى وحياتى من أن تسحق روحى . .

تقولين إنى مجنونة . . لا . . لست مجنونة . . ولكنى لا أرى مبررًا حقيقيًا لحرمانى من حقى فى الاختيار . . تزعمين أن عصيانى سيجعل اسمى مضغة فى أفواه الناس يلوكونه بالشماتة والسخرية . . الناس ليسوا أنا . . وأنا لست الناس . . لكل عالمه . . إن بداخلى دنيا لها ضوابطها ومقاييسها ولن

أرحم أحدًا ينتهك حرمة دنياى وأحلامى. . تمامًا كما يفعل أبى والرجال عندما يغير الأعداء على ديارنا. . ويوم أن أرى أنه لا مفر من الوقوع فيما لا أراه ضروريًا لى، فلسوف أفِرُّ. . أهرب إلى آخر الدنيا. . ولن يعثر علىَّ أحد. . ».

وافق على زيدون على أن يبعث بابنته إلى الطبيب فى رأس الخيمة، ورافقها هو وزوجها المرتقب خميس، كانت الرحلة بالنسبة لها ممتعة، ولم يكن يشوبها سوى وجود خميس، الرجلان يسيران فى المقدمة، وهى تمضى خلفهما وعلى وجهها برفع أسود، وتندمج أطرافه فى غطاء الرأس والملابس السوداء، ليت الطبيب يستطيع أن يحتجزها فى المستشفى بضعة أيام، حتى تبعد عن جو الخلاف العائلى الصاخب، وتريح نفسها من رؤية خميس، وسماع كلماته المتعجرفة، تلك الكلمات التى يتوهم أنها ترفعه فى عينها، وتجعله قريبًا من قلبها، ومن يدرى؟ فقد يتسلل عبد الله ويأتى إليها زائرًا فى المستشفى، فتنطلق على سجيتها، وتتحدث معه على هواها بعيدًا عن أعين الرقباء. . وكلما اقتربت مريم من المستشفى ازداد لهاثها، وصعد تنفسها، حتى إنها لم تكد تبلغ المستشفى إلا ونوبة الربو كانت على أشدها. .

قال أبوها:

- «عجيب. . لقد كانت منذ ساعة فى حالة طيبة. . ».

وقال خميس في ضيق :

- «إنه من أثر التدليل الذى تلقاه منا . . » .

ورمته مريم بنظرة حانقة ، كان فيها كل المعانى التى تريد أن تعبر عنها ، ولم تنطق بكلمة واحدة ، أما أنا فقد قلت فى هدوء :

- «أرى أن من الأوفق بقاءها فترة تحت الفحص والعلاج بالمستشفى . . » .

ضحك أبوها :

- «لا داعى لذلك . . » .

وأردف خميس :

- «تأخذ علاجها وتنصرف» .

أما هى فقد قالت بذكاء وهى تلهث :

- «لنضع الأمر بين يدى الطبيب ، فهو صاحب الشأن . . » .

ثم التفتت صوبى قائلة :

- «هل من الضرورى أن أبقى هنا يا طبيب؟» .

الثورة المكبوتة فى عينيها ، والتوسل الخفى ينبع من نبراتها وصدرها يعلو ويهبط وكأنها فى سباق رهيب ، وأدرت الأمر

على جوانبه، فوجدت أنها يجب أن توضع للمراقبة والفحص لمدة أسبوع أو أسبوعين، فأعلنت رأيى:

- «لتبق هنا..».

قال خميس وقد احتقن وجهه:

- «لا نوافق على ذلك.. إنه تصرف شائن لا يقره أحد..».

التفت إليه على زيد زيدون قائلاً:

- «ماذا جرى يا خميس، لِمَ تقيم الدنيا وتقعدها من أجل أمر كهذا؟.. أعتقد أنه الأصوابَ تنفيذ نصيحة الطبيب».

دق خميس الأرض بقدميه فى حنق بينما ابتسمت مريم فى رضى، وهتف خميس منفعلاً:

- «سأبقى إلى جوارها هنا..».

قالت مريم:

- «لست سجينة، وما أنا بحاجة إلى حارس.. هل لكل المرضى هنا مرافقون..».

وحسمت الأمر قائلاً:

- «غير مسموح بذلك..».

انصرف خميس محتداً، فلم يلتفت إليه أحد، وانشغل الأب بما تحتاجه ابنته من مطالب، ثم انصرف بعد فترة، وعندما مررت على جناح النساء فى الظهر وجدتها مستلقية فى سريرها فى سعادة قصوى، ونفسها هادئ ولا أثر للاضطراب أو الانزعاج فيه . . وعندما رأتنى قالت مبتهجة: «الحمد لله . . لكأنما انزاح عن صدرى حجر كبير. أو صخرة عاتية. . أشعر أن الشفاء يدب فى أوصالى».

وفى المساء أحضرت لها بضع مجلات قديمة بها حشد من صور الرجال والنساء الملونة، وكانت فرحتها بها لا توصف، وسرعان ما انتزعت بعض الصور ولصقتها بالحائط فوق سريرها، وهى تنظر إليها بإعجاب طفلة غريرة يمتلئ قلبها بالغبطة والرضى.

الجو هنا متقلب غريب، شديد الرطوبة، مرتفع الحرارة، والسماء مغبرة، والبحر ساكن لا تلامسه نسمات، و«فاتسالا» معتكفة أغلب الوقت فى حجرتها، لا تظهر إلا ساعة العمل أو عندما أطلب استدعاءها لأمر ما، وموجة الشائعات أخذت حدتها تخف كثيراً لقد خرجت إلى الشارع. . واجهت الأكاذيب. . شرحت الأمر لشيوخ الإمارة فاقتنعوا، وخطيب المسجد ألقى خطبة عصماء فى صلاة الجمعة عن الذين يرمون

المحصنات من النساء بالتهم الكاذبة، وعقوبة ذلك عند الله، وحذر من التمادى فى هذا العبث، وتوعد المخطئين بنار جهنم والعقاب فى الدنيا والآخرة.

لكنى فى الحقيقة دبرت عقوبة من نوع مؤلم للسيد «بيتر»، فقد تسببت فى نقله إلى مكان بعيد، لعل ذلك يعلمه كيف يعف لسانه عن الأكاذيب والأراجيف، وعاد الهدوء إلى المستشفى، ولاحظت تقدمًا باهرًا فى صحة مريم، ولم تعد تداهمها النوبات، كست الحمرة وجهها الأسمر ودبت فيها حياة ونشاط غريبان، والضحكات الطروب الساذجة تتألق فى عينيها، وتضرب عرض الحائط بقوانين المستشفى، فتخلع ملابس المرضى، وترتدى ملابس ملونة مذهلة، ويلمع حول عنقها عقد من الأحجار الكريمة وهلال كبير من الذهب، ويتدلى من أذنيها قرط ذهبى كبير، وتحرص على صبغ أهدابها بالكحل الأسود الذى يزيدها فتنة وجاذبية.

هى تكره كثيرًا من النظم المتبعة، فأراها أحيانًا تجرى فى حوش المستشفى، أو تذهب إلى المطبخ؛ لأن الطعام لم يعجبها فتجرى عليه بعض التعديلات، وقد تأتى بالراديو وتفتحه لتستمع إلى أغانيه دون نظر إلى راحة المرضى، فكنت أعاتبها فى رفق، دون أن أجرح مشاعرها، والحقيقة أنها كثيرًا ما كانت تستجيب لنصائحى..

دق بابى فى إحدى الليالى، وخرجت لأفتح فإذا بها أمامى، وهذا شىء يزعجنى ويسبب لى كثيراً من المتاعب، وما إن فتحت الباب اندفعت إلى الداخل. . قلت فى ارتباك:

- «هذا ممنوع. .».

- «جئت لأستنجد بك. .».

- «اذهبى وسآتى إليك فى جناح الحريم. .».

- لم تعرِ كلماتى اهتمامًا، وقالت فى غيظ:

- «إنه يجلس بباب المستشفى لا يفارقه. .».

- «مَنْ. .؟».

- «خميس ابن عمى. .».

- «وماذا أفعل؟».

- «تطرده. . لا أريده هنا. . بقاؤه هنا يقتلنى. . يزيد من مرضى وعذابى. .».

- «اذهبى الآن وسآتيك بعد لحظات. .».

وما إن رددت الباب حتى سمعت صراخًا وصياحًا، فأسرعت إلى الخارج بملابسى المنزلية. . رأيت خميس يجذبها بعنف، ويلوى ذراعها ويسدد إليها لكمات قاسية:

- «لسوف آخذك إلى الجبل برغم أنفك . . هذا العهر لا يمكن السكوت عليه . . نومك فى المستشفى عارٌ ومسبةٌ أيتها الفاجرة . . » .

فصلت بينهما ، ثم أمرتها بالذهاب إلى سريرها والتفت إلى خميس قائلاً :

- «إذا لم تخرج استدعيت لك الشرطة . . ليس هذا موعد الزيارة . . تفضل . . » .

لم يحاول ، وانصرف فى خجل ممتزج بالضيق ، كان يخطو كفارس مهزوم ، ورأيت الحارس يدفعه إلى الخارج فى غلظة ، فلم يعترض ، ومن ناحية يجب أن أضع حدًا لهذه المشاكل الوليدة قبل أن تستفحل .

وجاء أبوها فى اليوم التالى ، وعلم الرجل بما جرى ، وكان واضحًا أنه قد بدأ ينقم على تصرفات خميس ، ويرى فيها تشهيرًا بابنته ، وقدحًا فى كرامتها التى هى جزء من كرامته ، فما كان منه إلا أن استدعى خميس الذى يقف بالخارج ثم صرخ فيه محتدًا :

- «لا أريد أن أرى وجهك هنا مرة ثانية . . » .

●●●



وعندما انصرف خميس قلت :

- «أما زلت مصرًا على زواجها منه؟ . . » .

- «هذا أمر مفروغ منه، ولا مراجعة فيه، من تتزوج غيره؟ . . لقد قلت وانتهى الأمر . . . لا أحب الرجوع عما اتخذته من قرارات . . . الترددُ مضيعة للوقت، ونقصانٌ لهيبتي، وبرهانٌ على ضعفي، وأنا سيدُ القبيلة تعلمت أن أحسمَ كلَّ شيء دون تردد . . . إذا أردت أن تكون رجلاً بين الرجال لا تتذبذب، وسِرْ دائمًا إلى الأمام، وكن واثقًا بنفسك . . ولا ترجع حتى ولو كنت مخطئًا . . . بذلك تسير الأمور على الجبل سيرًا حسنًا في كافة القبائل المجاورة، وتنحنح في شيء من الضيق، واستطرد :

- «لا تسمح لذلك الصعلوك عبد الله أن يقترب من باب المستشفى، وإذا حدث وأتى إلى هنا ووقعت عيناه على مريم

فلسوف يسيء ذلك إليّ إساءة بالغة . . وعندئذ سأجدنى مضطراً لذبحه كما تذبح الشياه . . » .

وتضايقت أشد الضيق بعد يومين عندما علمت أن مريم تسللت من المستشفى وذهبت إلى السينما «رأس الخيمة»، ماذا سيقول أبوها؟ . . إن المسئولية معلقة فى عنقى، وربما كان ذلك التدبير بالاتفاق مع عبد الله الملعون، وقررت دون تردد إخراجها من المستشفى حتى أريح نفسى من هذه المشاكل، وحينما استدعيتها إلى مكتبى كانت البهجة تطفر من عينيها والسعادة تتوهج على جبينها، وتذكرت الجنة العذراء فى أرض الخيال الخضراء المزهرة . . . أغمضت عينى، وقلت متشجعًا :

- «أين كنت بالأمس؟» .

- «رأيت قصراً رائعًا . . . ونساء كقطع الحلوى . . كان الرجال يقبلون أيدى النساء تصور . . !! ويعاملونهن برقة غريبة . . وكانت المرأة تأمر فتجاب إلى طلبها، وكأنها ملكة تحكم . . . وكان الرجال يطلقون الرصاص، ويموتون من أجل المرأة . . أقول الحق . . كانت جميلة . . لكنها نحيفة . . . موائدهم عامرة بالطعام والشراب . . كانوا يرقصون بلا حرج . . حرية بلا قيود . . فى أى عالم يعيش هؤلاء؟ ولماذا لا

نعيش مثلهم . . . أريد أن أرى هذه الأشياء بنفسى وألمسها بيدى . . إنه حلم حياتى . . قلت له يا «عبد الله» . . صرخت عند هذه الكلمة من عبارتها قائلاً :

- «هل كان عبد الله معك؟» .

- «للأسف كان مذهولاً شارداً . . عبد الله جبان رعديد يخاف من أبى . . كان يرتجف طوال الجلسة ، ويتلفت يمنة ويسرة . . إننى أحتقر الخائفين الجبناء . . ومع ذلك فما زلت أحبه . . » .

قلت وأنا أتصبب عرقًا :

- «سوف تخرجين من المستشفى اليوم . . » .

نظرت إلىّ فى دهشة ، وكأننى أصدرت حكمًا عليها بالإعدام وصرخت والدموع تملأ عينيها :

- «مستحيل» .

- «لقد تحسنت حالتك ، وسأعطيك العلاج اللازم . . » .

- «إنك تقتلنى . . » .

- «ليس فى الإمكان أن تبقى بالمستشفى إلى الأبد ، ثم إنك تتصرفين دون مراعاة للدين والعرف» .

- «لو أخرجتنى لقتلت نفسى . . » .

يا للكارثة!! لا أخرج من مأزق إلا وأنزلق إلى ألعن منه، ما لى وهذه النكبات، أيها الشيطان المستتر فى أعماقى المظلمة، ما لى أراك تنظر إلى العيون الجميلة، وقد أغرقتها بالدموع، فتتوثب وتملأ نفسى بالرغبات، وأجد بداخلى رغبة عجيبة فى بقائها بالمستشفى.. لكن «فاتسالا» تصر على خروجها.. حسنًا لن تخرجى يا مريم، تستطيعين أن تبقى معنا أسبوعًا آخر..

وأخيرًا بعد أسبوع رحلت مريم إلى الجبل، كان ذلك رغمًا عنى، فمع أننى كنت قد أخبرتها بالخروج عقب أسبوع، إلا أننى لم أنفذ ما اتفقت عليه، لكن أباها أتى، وأصدر أمره دون مناقشة:

- «هيا بنا يا مريم.. لا معنى لبقائك هنا أكثر من ذلك، بعد أن تحسنت حالتك.. لا تقاطعينى فلن أسمح لك بالبقاء... وحينما يصدر أبوك أمرًا، لا يكون هناك مجال لغير الطاعة..».

طأطأت رأسها فى ذلَّة، وجمعت حاجتها وخطت إلى الخارج، لم ترفع عينيها عن الأرض، كانت تسير كأميرة أسيرة وقعت سبية فى يد غازٍ من الغزاة الجبارين، لكأنما كانت تساق إلى الموت، لم أدرِ ماذا يعتمل فى رأسها الجميل، ومضى

أبوها خلفها وفى يده عصاه . . . كان يبتسم فى سعادة ينظر إلى الأمر فى هدوء وبلا انفعال، فمن البديهى أنها لن تقيم بصفة دائمة فى المستشفى، ولابد أن يعود الطائر إلى عشه، والقبيلة تكره الشاردين والشاردات، وتقوم وتقعد من أجل شاة فُقِدَتْ . . وإلى جوار الأب مضى خميس ابن العم، كان ينطلق وعلى وجهه شماتة لا يستطيع إخفاءها، يستشعر مذاق النصر، ويخيل إليه أنه أتى عملاً بطوليًا دون أن يحرك سيفًا . . أو يقول كلمة واحدة، الحقيقة أننى كرهت خميس كما تكرهه مريم، لا أطيق نظراته ولا عنجهيته الفارغة، ولا كبرياءه التى لا تنهض على أى أساس.

هناك نوع من الرجال يضايقنى أشد الضيق أن أراه يتزى بزى الرجال العظماء الشرفاء، حتى ولو كان منهم . . وهناك فئة من المساكين الفقراء تبدو على سيماهم ملامح العظمة والكبرياء مع أن ظروفهم العامة لا تؤهلهم لهذا الموقف، وأنا لا يهمنى ما يحيط الرجال من مال ورجال، وما يرتبطون به من حسب ونسب، وإن ما يهمنى هو الإنسان نفسه، خميس تافه سمج حقير، مهما كان حسبه ونسبه ومركزه فى القبيلة، ومريم أميرة بكل ما تحمل هذه الكلمة من إيحاءات وظلال ومعان . . أنفها الشامخ . . ابتسامتها الذكية الملوكية، وبساطتها العظيمة ونظراتها المتألقة الآسرة، وكلماتها القوية المتحررة، حتى

انحناءاتها وخضوعها أمام سطوة أبيها تجعل منها إنسانًا أقوى وأعظم وأشرف من خميس القميء المتعجرف . . يا إلهى أين تعلمت ذلك وهى معزولة مع قومها على الجبل .

شعرت بضيق بعد انصرافها ، الناس يدخلون المستشفى ويخرجون ، والأمر يمضى دائمًا دونما انفعال يذكر ، لكن دخول مريم وخروجها كان له آثار أخرى وترك على نفسى بصمات من نوع غريب . . أنظر إلى وجوه الداخلين من المرضى فيخيل إلىَّ أنها تنتصب قبالتى ، وأرى الخمار الأسود على وجه أية امرأة ، فتتألق من ورائه عينا مريم ، أسمع صوتًا نسائيًا فى الخارج ، فيلتبس علىَّ أمره وأتوهم أنها هى . . شىء غريب . . هذه الفتاة البدوية التى يفصل بينى وبينها مسافات طويلة ، بل قرون مديدة من الثقافة والتقاليد ، ومع ذلك فإن الأمر ليس غامضًا تمامًا ، هناك شىء يلتقى عنده الناس برغم تفاوت الفكر والمدنية . . شىء يرتكز على التفكير . . الحب ، أو الإعجاب . . المرض . . الخوف . . هنا يتوارى المرض ، وتخفت ضراوة التقشف ، وينام حرص الزهاد ، وينمحى الخوف من الرئاسة والناس ، وينطلق القلب متحررًا من كل القيود ، لقد خلق الله القلب حرًا . . الشجعان وحدهم هم الذين يفكون قيود أنفسهم ، ويفسحون الدنيا ليتألق القلب ، ويقول دونما خوف . . لا . . أو . . نعم . . أما العقلاء- أعنى

الجبناء– فهم القادرون على إبراز الكبت كفضيلة . . ماذا جرى لى؟ كيف أفكر بهذه الطريقة؟ يبدو أننى أصبت بلوثة داخلية، برغم وقارى الظاهر، وردائى الأبيض، وابتسامتى التقليدية . . ومع ذلك فإن الحقيقة التى تنتصب قبالتى . . هى أن مريم ذهبت، ولحن هندى حزين يترنم فى أروقة الروح الفسيحة . . أصداء مكتئبة تنهمر كالدموع على قلبى المضطرب . . انفرط كل شيء وكشفت الحقيقة عن وجهها. . . السفور يصفع كذبى ونفاقى وأنا خريج مدرسة السياسة فى بلدى التعس . . حيث يصفق الناس وقلوبهم تلعن من يصفقون له، وحيث تنشق الحناجر بالهتاف الصاخب لكل جبار عنيد . . والسياسة فن، والفن يعنى هنا الكذب والابتسامات الزائفة والانحناءات المرسومة، والكلمات المنمقة التى لا تشع إلا عاراً وخطيئة . . حسنًا . . يبدو أننى أحب «مريم» بنت البادية . . أحب فيها الشجاعة التى أفتقدها، والتمرد الذى أرهبه، والجمال الفطرى بلا تزويق، ولا ألوان ولا أصباغ . . أحب فيها مجموعة من الفضائل حُرِمْتُ منها طويلاً . . قسمًا بالربع الخالى، وأطلال القدماء، وحداء الإبل، والرجز الوحشى على السفوح حيث يشعل الدماء . . قسمًا بكل ذلك إنى أحبها . . ودخلت فجأة «فاتسالا» وهى تنظر إلىّ فى شك وقالت :

- «ذهبت إلى الجحيم. .». . قلت فى شرود:

- «وكيف تذهب الجنة إلى الجحيم؟!».

اكفهر وجهها، وغمغمت:

- «ألا تفهم أن للمرأة كرامة؟».

- «ما أهنت كرامة أحد. .».

ألقت ببعض الأوراق والوصفات على مكتبى، وقالت:

- «وقّع بإمضائك. .».

تجرى عيناى على قائمة طويلة من الكحول والأسبرين والسلفايازين وحقن الكورامين والأتربين والبنسلين، طوال قراءتى للقائمة أرى عينين تلمعان بالدموع، وأهداب مريم. . آه كالرماح المشرعة تتحدى مدينة الخوف والأكاذيب. . وابتسامتها تضىء السطور كالأضواء الكاشفة التى تنير السماء. . وتبحث عن الطائرات المعتدية أو ترشد الطائرات القادمة من سفر طويل. . كونى أىَّ شىء يا مريم. . فإنك حقيقة مذهلة دخلت قلبى. . تسللت إليه فى خفة، وغزت عصب فيه. .

يا أميرة الجبل الصامت الصامد الذى يتحدى عوامل الجفاف والفقر والقيظ الشديد كونى بدوية ساذجة، أو طفلة

غريرة متمردة، أو صبية ناشزًا . . أو جاهلة مجنونة . . أى شىء فإن أريجك المتضوع قد سلب لبى، وتمكن من سويداء قلبى، ولحنك الغجرى يدق غى عنف فيشعل النار فى دمائى ويجسد حرمانى الطويل . .

- «ماذا كنت تقصد ببقائها هنا؟» .

- «العلاج . . يا «فاتسالا» . . » .

- «لكنها كانت كثيرًا ما كانت تقذف بالأدوية فى سلة القمامة . . » .

- «هل من الضرورى يا «فاتسالا» أن يكون العلاج عقاقير؟ تغيير الجو الاجتماعى . . الكلمة الطيبة . . الثقة التى يبثها الطبيب فى قلوب مرضاه . . كلها تشكل ألوانًا أخرى من العلاج . . » .

قالت «فاتسالا» وهى تلوى شفتها السفلى :

- «تستطيع أن تذهب إلى مصحة للأمراض النفسية، فيعالجونها فيه . . ليس لدينا وقت لهذا الصنف من المرضى . . » .

- «حسنًا هذا شىء أحدده أنا . . ومع ذلك فقد خرجت . . » .

وأرى بعين الخيال شبحًا رقيقًا يصعد الجبل، العيون الجميلة خلف الخمار، والشفتان المزمومتان تسجنان الكلمات الحلوة، وأبوها وراءها وخميس يدب كقرد، تبهجه الشماتة والنصر الحقير، وطائر النورس يحلق قرب الشواطئ، ويرفرف بجناحين نظيفين تبللهما الرطوبة.. ونخلة عتيقة تهتز بطيئًا، وشياه وماعز متناثرة فى عرض الصحراء تبحث عن نبتة خضراء.. لكن الحياة تشتعل بقوة هذا الجفاف، والحرارة التى تصهر الأبدان، والينابيع تتحدى الجفاف بتدفقها الرصين..

وفى هذا الفقر تنبت زهور عجيبة.. مريم زهرة برية حادة الأريج.. تشدنى إليها بقوة جذب هائلة لا تقاوم.. كيف مرت الأيام وهى إلى جوارى دون أن أتحرك.. كان يجب أن أفعل شيئًا.. أن أعبر عن أشواق الإنسان فى قلبى المحترق.

- «فاتسالا».. أنا متعب.. وأريد أن أستريح ساعتين.. هل بقى أحد من المرضى؟».

- «لا..».

قالتها فى إيجاز، واستدارت ثم مضت خارجة، لم أجد لدىَّ أدنى رغبة فى مراضاة «فاتسالا» أصبحت أرفض هذا النوع من الاعتذار، ولماذا أعتذر؟ إن أبسط الأشياء أن تكون حرَّ التفكير، منطلق العواطف، وتصرفات «فاتسالا» تذكرنى

بأيام السجن الحزينة، والقضبان الصدئة، وطباخ السجن بقدوره القذرة التى تمتلئ بالعدس، أصبح العدس مرادفًا لكلمة السجن . . والقضبان . . والحرمان . . لا أريدك يا «فاتسالا» أن تكونى مرادفًا جديدًا للعدس، وأضحك ثم أكْفَهِرُّ فى أقصر وقت . . تلك حقيقتى مع أن ابتسامتى قد تنسحب على اكفهرارى فأبدو وكأنى لم أزل فى أوج سعادتى مع أنى أبعد ما أكون عن مظهرى . . وقد مللت هذه اللعبة . .

- «فاتسالا» . . «فاتسالا» . . تعالى . . لا تتدخلى فى شئونى مرة ثانية، ترقرقت دمعة فى عينيها، وجرت قبل أن تنفجر باكية . . وتنهدت فى شيء من الارتياح أو ما يشبه الارتياح . . يا للغربة القاسية الجافة ! !

فى الماضى كنت ألجأ إلى أبى العالم الجليل، أسأله عما يكربنى أو يحيرنى، وألتمس من حنانه جرعات أروى بها ظمئى، وأهدئ بها من تمردى، كان دائمًا يحدثنى عن الله . . ويؤكد لى أن الإيمان علاج لكل داء، وأن الرضا سعادة، ويفيض فى شرح ألاعيب الشيطان، وكيف يتسلل إلى قلب المؤمن . . كنت أتذكر كلماته الصادقة حينما ساقونى إلى السجن تحت الأرض، وأتذكرها والسياط تلهب جسدى، والغيظ يأخذ بمجامع نفسى، وأنشد الموت فلا أجده، كلمات أبى كانت زادى فى رحلات الشقاء المتتالية .

قال لى ذات مساء :

- «المحن هى توابل الحياة» .

- «ولكنها صعبة يا أبى» .

-«وهى التى تصهر سعادة الرجال، وتكشف عن معادنهم» .

- «نحن كالعبيد يا أبتِ» .

- «أى بنى الحرية هى وجودك . . إنها فى داخلك لاتموت . . والسياط تزيدها اشتعالاً» .

- «دليل وجودها تلك الآثارعلى جسدك . . لقد خلقها الله فينا . . هى دماء المؤمن» .

وعندما قررت الهجرة، تسللت عبر الحدود هاربًا بجلدى ومعى أوراقى لم يمانع أبى فى ذلك، وأوصانى بأن أعيش حياتى بالأسلوب الذى أراه بشرط واحد وهو ألا أخرج عن منهج الله، فأقرأ القرآن، وأحذر الشيطان .

وعندما علمت أنهم قتلوا أبى ضمن من قُتلَ من العلماء أصابنى اضطراب هائل، واهتزت كل قيم الدنيا فى رأسى، خيل إلىّ أن العالم كله يتواطأ ضد الشرفاء والأحرار، لم أجد من يأخذ بثأر أبى، شعرت بتضاؤل قاتل . . فمن يكون أبى

ومن أكون؟ أفراد فى جيش النمل الكبير الذى تسحقه أقدام السائرين فى دنيا الله الواسعة الكبيرة . . حاولت أن أعود لأثأر . . ضحكت . . أصابنى اليأس . . الحرية التى خلقها الله فى دمى يبدو أنها تذوى . . تتبخر . . تفنى . . فى صومعتى برأس الخيمة أحاول أن أقرأ القرآن . . نظراتى تزوغ بين السطور . . وأرى عينى أبى تلومانى وكأنه يلح علىّ أن أستمر فى القراءة . . «فاتسالا» تأتى . . تأخذنى هى كالأقراص المهدئة لأعصابى المتوترة، تلك الأقراص التى ألجأ إليها عندما يشتد بى الكرب . . قرص . . وجرعة ماء . . وبعد ربع ساعة أشعر بالهدوء . . ثم ألجأ إلى نومى الممتلئ بالكوابيس والأشباح . . أكاد أقتنع أن «فاتسالا» لن تستطيع شفائى مما بى . . إحساس عميق يداهمنى بأن مريم الغزالة البرية هى العلاج الحاسم . .

يا أبى، نم هانئ الروح فى قبرك المجهول، فإن ابنك لم يرتكب إثمًا . .

●●●



أصبحت مريم ضائقة النفس بكل ما حولها . . العالم الواسع الذى ولدت ونشأت فيه بدا لها ضيقًا ومملاً، وترى خميس قادمًا من بعيد بقامته القصيرة، فتدعو الله من أعماقها أن تنشق الأرض وتبتلعه، وتبصر بأبيها فترى فى عينيه الحب العميق، والخوف المستكن، والقلق الواضح، ونساء القبيلة تشعر إزاءهن بالنفور الممتزج بالعطف، تهب من نومها ضيقة الصدر فتغادر خباءها، وتنطلق إلى شعاب الجبل حيث الصمت والليل والهواء المنعش، وقد يمتد بها السير حتى يطلع الفجر أو تشرق الشمس. . تمضى وكأنها تشاهد قصة سينمائية على شاشة من الوهم. . وذات مساء كان عبد الله ينتظرها . . مشت إلى جواره صامتة، وأخذ يروى لها كيف أن ابن عمها يسىء إليه، ويتعمد توجيه الإهانات له، وهو يأنف من الرد عليه، ويتحاشى الصدام معه، حفظًا لوحدة القبيلة واستقرارها، والناس يطاردونه بالغمز واللمز، فلو كان ابن

شيخ القبيلة- أو واحداً من رجالها الكبار- لما جسر أحد على النيل منه، أو التعرض له بأذى، لكن هكذا الناس، لا يكترثون لمعادن الأفراد بقدر اكتراثهم بوضعهم القبلي، وقالت مريم وهي في طريقها:

- «تستطيع أن تكون شيئًا..».

قال في ثقة وانفعال:

- «هراء.. إنك مثلهم تطعنين كبريائي».

- «لكي تكون رجلاً يجب أن تتحدى».

- «أتحدى أباك».

- «تتحدى كل الظلم والأنانية».

- «من أجلك أنت يا مريم أعتصم بالصبر والتسامح..».

- «لا، إن ما تفعله يمزق ما بيننا من أواصر..».

أمسك بيدها، رنت إليه بطرف حائر، ضمها إلى صدره، تململت قليلاً، ثم استسلمت، طبع على وجهها قبلة حارة، وهتف:

- «لن تستطيع قوة أن تنتزعك مني..».

سكنت معارضتها، وانتشى قلبها البكر بكلماته القوية، وتحسست ذراعيه المفتولتين، وتمتمت:

- «تستطيع أن تكون فى مركز أبى» .

مسح بأنامله المرتعشة على رأسها وعنقها ، وتمتم :

- «حينما تكونين معى أشعر أنى أملك الدنيا كلها . . إننى أحلم باليوم الذى نمتطى فيه ظهر بعيرى ، وننطلق سويًا فى عرض الصحراء باحثين عن واحة جميلة ننعم فيها بالحب والحياة . . » .

خلصت نفسه من بين ذراعيه ، ومضت إلى الوراء خطوة وتمتمت :

- «تريد الهرب» .

- «ما دمت معى فكل شىء يهون . . » .

- «لذتى الكبرى فى أن أبقى هنا . . وأن يرى الجميع أننا حققنا إرادتنا وأصبحنا زوجين برغم التحديات . . » .

- «أما أنا فلا أكترث بغير الجوهر . . ما أعنيه ، ما أعنيه هو أن نكون معًا . . بصرف النظر عن المكان والزمان ، إنهما خلفيات لا معنى لها . . » .

- «وأنا أخالفك الرأى . . نحن مع الزمان والمكان شىء واحد . . روعة الحب فى التحدى» .

تنهد فى حسرة :

- «معنى ذلك أن نخوض حربًا وأن تسيل الدماء . . » .

- «فليكن» .

- «وقد يسيل دمى أو دم أبيك . . » .

اقتربت منه وبرقت عيناها فى ضيق، وهتفت :

- «أنت جبان» .

جذبها من يدها فى عنف، وقال :

- «أنت تعبثين . . أشك فى أنك تحبينني . . أنت تريدين أن يقال سالت الدماء على جبل الشحوح من أجل مريم . . الشباب يتصارعون من أجل مريم . . وتريدين أن يتردد اسمك على الأفواه . . وأنا أريد الحب . . أريدك أنت أيتها المجنونة . . » .

قالت فى شرود :

- «لست جارية لك . . » .

رفعت عينيها إلى الأفق المرصع بالنجوم اللامعة وتمتمت :

- «إنه رجل رائع . . ذاك الطبيب فى رأس الخيمة . . كان يجيب عن أى سؤال . . عنده علم الدنيا والآخرة . . أحيانًا يقول لى بكل تواضع : أنت على حق يا مريم . . وكان يعارضنى فى بعض الأحيان، لكن لم أشعر قط أنه يتعالى علىّ . . كان

لطيفًا . . طليق الوجه ، يضحك من كل قلبه . . أو يستسلم لحزن عميق . . وكان لكل رأى يبديه أسبابه الوجيهة . . » .

قال لى : «إننى أعشق الحياة عندكم بالجبل . . » ما معنى ذلك يا عبد الله ؟ ! امتعض عبد الله ، وأخرج من جيبه «مدواخًا»- بايب صغير- ودس فيه قليلاً من التبغ ، وأخذ يجذب أنفاسًا سريعة قصيرة ، وتمتم :

-«إنه لا يعرف شيئًا عن حياة الجبل . . هل يستطيع أن يعيش بغير الثلاجة والطباخ ومكيفات الهواء؟ هؤلاء الناس أكذب الخلق طُرّاً . . » .

واقترب منها ولمس يدها فى حنان ، وقال :

- «لماذا نذهب بعيداً . . لنعش حياتنا الحلوة فى غفلة من الرقباء» .

كلما لامسها ، ولفح وجهها بأنفاسه ، وهنت قواها ، وخفق قلبها ، إن تأثيراً غامضًا يذيب مقاومتها ، ويذهب عنادها ، والغريب أنها تجد فى ذلك كله راحة كبرى ، لكن سرعان ما تهب رياح القلق والتمرد ، فتفسد عليهما روعة اللقاء ، ومتعة الوحدة ، همست :

- «لشد ما أحبك يا عبد الله . . » .

هتف وهو يحتضن راحتيها بكفيه:

- «ومن أجلك أنت بقيت هنا.. أصبحت الحياة لا تطاق.. وفى المدينة سواء دبى أو الشارقة أو رأس الخيمة أو الكويت.. قد يجد الإنسان العمل والحياة المريحة.. لكننى بقيت من أجلك أنت يا مريم..».

رفعت إليه وجهًا مبتهجًا، يتألق فى هدوء تحت ضوء النجوم:

- «وإذا هربنا فأين نذهب؟ لقد زعمت أنك تريد أن تبحث عن واحة..».

- «لا أعنى ذلك بالضبط.. أريد مكانًا أمينًا ننعم بالحياة فيه..».

قالت وهى تنظر إليه فى خوف:

- «ألن تتخلى عنى قط؟».

- «من منا يستطيع أن ينسلخ عن روحه؟».

تنهدت فى ارتياح.. «كنت أفكر فيك، وأنا فى المستشفى.. وأتخيلك تدور حول أسوارها، وتسترق النظرات عبر النوافذ، ثم تقذف بنفسك من فوق السور وتأتى إلىّ.. وأشعر بفيض من السعادة لا يوصف وأنا أتخيل تلك

المشاهد، وبوم أن تسللت من المستشفى وذهبنا إلى السينما، كنت أشعر أننا نخطو على هام السحاب.. وأننا نعلو، ونعلو، فلا يستطيع أن يلحقنا أحد.. تضايقت منك وأنت تندمج فى مشاهد السينما.. كنت تنظر إلى الممثلة وكأنك تريد أن تلتهمها بعينيك الجائعتين.. يومها خفت منك..».

قال عبد الله فى سعادة:

- «كنت أتوهم أنها أنت..».

-«لكنى كنت إلى جوارك».

- «أريدك ملكة الدنيا.. أريدك أكثر مما أنت عليه فى الواقع..».

-«لى الويل من هذا الطموح..».

الديكة تصيح، والفجر يوشح القمم، والكلاب تنبح وهما جالسان متجاوران، وتمدد عبد الله، واضطجعت مريم والعيون معلقة بالسماء التى وشحها ضباب خفيف، وشعرت ببرودة فى أطرافها حينما تقلب فى اتجاهها.. هبت واقفة، وخفقات قلبها تضج خلف الدموع، وهتفت:

- «ماذا تريد..».

سعل دونما حاجة للسعال، ولم يرد بكلمة، قالت هادرة:

- «أنا أكره اللصوص . . » .

- «نحن شىء واحد» .

- «بل اثنان» .

-«إن الشيطان قد ركبك يا مريم . . » .

- «أريد أن أعطى فى ضوء النهار . . فى الحلال» .

- «قد يطول الليل يا حمقاء، ولا ندرك الصباح أبدًا ما دامت القبيلة هى القبيلة، وأبوك حى يرزق» .

أمسك بها فى عنوة، وهتف :

- «أنت تخافين والخوف نقيض السعادة» .

يا ويحها، تشعر بمقاومتها تضمر، وقواها تتخاذل وبرودة أطرافها تتحول إلى حمى مشتعلة . . غير أن صوتًا قريبًا تردد صداه فى الصمت والظلام :

- «يا عيضروس . يا عيضروس . . يا عيضروس . . يا عيضروس . . يا عيضروس . . يا محيى النفوس . . خللى السحاب يمطر لبنًا . . » .

هبت واقفة تنظر إليه فى غضب، بينما أخرج «مدواخه»، وأشعله من جديد وعاد إلى الأنفاس السريعة القصيرة التى يجذبها، وأعطته ظهرها وولت مدبرة . . الفتاة تعيش فى القبيلة

بوجهين: وجه تلقى به الناس والحياة العامة، يقدس كل ما تؤمن به القبيلة من قيم وأخلاق وتقاليد، ووجه آخر تخلع عنه القناع، وتبدى ذات نفسها لصديقاتها المقربات أو أصدقائها، وفى داخلها تحيا حياة يتقاذفها التردد، والخوف والتمزق، وليس هناك حدود فاصلة تقسم بدقة تلك الصورة الداخلية أو الصورتين الخارجتين، فالنساء يتفاوتن عمقًا وسطحية، قربًا أو بعدًا، من تلك الحقيقة المهمة فى دنيا القبيلة.. ومريم برغم خضوعها لمواصفات القبيلة وأخلاقياتها، إلا أنها كانت أكثر جرأة، لما حظيت به من التدليل فى صغرها، ولكونها ابنه شيخ القبيلة على زيد زيدون، ولجمالها الأخّاذ، وقد يغتفر لصاحبة الجمال كثيرًا من الهنات أو الأخطاء، وقد يبيح لها بعض التصرفات الاستثنائية التى لا تتاح لغيرها من الفتيات، بل لعل أباها كان سعيدًا فى قرارة نفسه وهو يرى الصراع الدائر والخفى من أجل الفوز بابنته.. ولقد ضحك على زيد كثيرًا عندما عرض عليه مطوع القبيلة «حسن بن محمد» أن يتزوج من مريم حسمًا للنزاع، وتجنبًا للشقاق الذى يكاد ينسف أمن القبيلة واستقرارها، وقال المطوع حسن:

- «لماذا تضحك يا على؟ إننى فوق الخمسين، لكنى أستطيع أن أنهض بحمل ناقة.. أستطيع أن أسحق خمسة من الرجال.. وأنا مصدر البركة، وينبوع العلم والمعرفة فى

أرضكم . . وإرضـــائى من إرضـــاء الله . . وأنا أقف بإيمانى وعلمى على الأبواب التى تتسلل منها الشياطين» . .

وتمتم على : «أنت الخير والبركة . . » .

أدرك المطوع أن شيخ القبيلة لم يتلقَّ الأمر بقبول وجدية ، وهتف فى غيظ :

- «إننى أنذركم . . إن ابنتك تحـــمل لأرضنا الخـــراب ، وسوف تهب من ناحيتها عاصفة الخلاف والفتنة . . » .

أحنى على زيد زيدون رأسه ، وتمتم :

- «إنك تهول الأمر ، وما هى إلا بضعة أسابيع وتتزوج من ابن عمها ، وينتهى كل شىء» .

تلفت المطوع حواليه :

- «الإثم ينشر سمومه فى كل اتجاه . . والفساد يعم الدنيا ، إننى أشم رائحة العار» .

- «الدنيا بخير يا مطوع» .

- «لا خير فى أرض يعصى نساؤها رجالها ، ولا يحترم جهالها علماءها» .

أدرك على ما فى كلام حسن من اضطراب وخلل ، وأخذ يشرح كيف أن النساء لا تعصى الرجال ، وكيف ينزلن على إرادتهم ، وأن للعلم وقاره واحترمه .

وكان على يعلم أن مطوع القبيلة لا يجمع فى عقله علمًا يذكر، بل إنه خليط من السحر وقليل من محفوظ القرآن، وبعض الأحاديث النبوية، والآداب الشرعية، ونيفًا من السيرة النبوية لا تصل بالرجل إلى العلم والأصالة، وكان يعرف أكثر من غيره أن المطوع لا يحظى بأى تميز أخلاقى، بل حامت حوله شبهات كثيرة تتعلق بالمال والنساء . . ولم يكن ينكر أنه برغم نقائصه يحظى بغير قليل من الحب والتأييد، ولم لا؟ إنه يؤم الناس فى الصلاة، وخاصة فى يوم الجمعة، وكتب لهم بعض الرقى لتقوى هممهم، وتزيل عنهم بعض الأمراض وتفتح لهم آفاق الأمل المغلقة وتقرب بين القلوب، وتجمع المحبين على أروع لقاء وصفاء . .

تمتم حسن بن محمد :

- «لو كنت فى أرض غير هذه الأرض لقبلوا التراب الذى أسير عليه . . ».

قال على زيد مبتسمًا :

- «عندك من النساء ثلاثة، ومن الذرية ثمانية، كبراهن يزيد عمرها على مريم عشر سنوات . . ».

- «فى روحى ينبوع سحرى لا ينضب . . ».

- «لكن التجعدات والشيب والكهولة فعلت

الأفاعيل . . »، أخذ على يضحك بينما احتقن وجه المطوع وانصرف . .

بقى على يضرب كفًا بكف، هذه الملعونة تجر عليه المشاكل والمتاعب، لا يصح أن تترك هكذا . . يجب أن يربطها برجل، ويضع حدًا لكل تلك الوساوس والأفكار، وليس من رجل سوى خميس، وبقاء مريم بدون زواج يعنى مزيدًا من الفتن والاضطراب . . وغدًا تذبح الخراف، وتمد الموائد، ويدعى الضيوف من القبائل المجاورة، وتدق الطبول لابنة سيد القبيلة .

وانزوت مريم داخل الخباء تعزف وحيدة ألحانًا وردية على خفقات قلبها الغريب المتقلب . . تذكر الطبيب، وتستعيد سكناته وحركاته وكلماته . . وتتحسس صدرها . . تتمنى أن يختنق . . أن تحبس فيه الأنفاس، حتى تفر من هذا المكان، وتعود إلى الأسرَّة البيضاء النظيفة . . والمبنى الأنيق الرحب . . والسينما التى تَدفق بالروعة والسحر، والأعاجيب والألوان الجميلة، وتحلم أن يكون عبد الله معها . .

لا . . عبد الله غريب التصرفات . . ولقد أصبحت تشعر بالحيرة والقلق بسببه . . هل يحبها . . ؟ هل يخدعها؟ . . وهى، ماذا جرى لعواطفها؟

●●●



٧

قالت مريم لأبيها :

- «أليس من حق الفتاة أن تبقى بدون زواج؟» .

- «أيستطيع بشر يا ابنتى أن يمتنع عن الطعام والشراب؟» .

- «يستطيع إن أراد . . » .

- «لكنه يموت» .

تمتمت فى ضيق : «يموت . . يموت . . فليمت ما دام يريد ذلك . . ومع ذلك فإن الأمر مختلف يا أبتِ . . الزواج ليس ضرورة كالطعام والشراب . . » .

تمتم وهو يرمقها فى تأفف :

- «إنه سنة الكون ، وشريعة الله . . » .

- «لكنه اختيار . . » .

- «لا أظن . . وأنا أعرف ما يدور فى ذهنك . . » .

قالت محتجة :

- «أنا أكره جميع الرجال ما عداك . . » .

قال وهو يسدد إليها نظرات ذات معنى :

- «وعبد الله . . . » .

- «صعلوك كما قلت أنت . . » .

ضرب كفًا بكف ، وحوقل ، وبسمل ، واستبدت به الدهشة ، وقطع هذه الثرثرة قائلاً :

- «الفتيات فى مثل عمرك لا يعرفن ما يضرهن أو ينفعهن ، ولهذا كنت على صواب حينما توليت بنفسى جميع أمرك . . ولسوف أبدأ فوراً فى إتمام زواجك من خميس . . ولا تنسى أننى أعلنت ذلك اليوم أمام عدد كبير من رجال القبيلة ، وسيقيم لك الشحوح أفراحًا ما جرت لأحد من قبل» .

أرخت على وجهها البرقع ، وتركت لدموعها العنان ، بينما انصرف أبوها ، وخطا خارجًا ، يضرب بقدميه الحافيتين الأرض فى تصميم وإصرار ، واقتربت منها امرأة عجوز ، وقالت بصوت راعش :

- «صدقينى . . إن تصرفاتك تحيرنى . . أنت لا تعرفين ماذا تريدين؟! اقعدى . . وكفى هزلاً وسخرية . . ماذا فى الزواج من خميس؟!» .

كلما تذكرت مريم خميسًا وتصرفاته وخبثه، ونظراته الشامتة، استبد بها الضيق واستشاط الغضب، لا تستطيع أن تتخيل الرجل الذى تكرهه يؤاكلها ويشاربها، ويشاركها الفراش، ويجاذبها أطراف الحديث.. فى ذهنها صورة مثلى للحب والمحبين، ويمتزج فيها اللعب بالعمل، والهزل بالجد، والمشاغبات المحببة، واللهفة الدائمة، والشوق العارم، وخميس ينبوع جاف لا يجود بشىء، لا يبدو على وجهه أثر لتلك الخيالات والرؤى الشائقة الجميلة.. إنه الصمت والجفاف والضيق.. شىء كالموت حرقًا، وكيف تقذف بنفسها فى هذا الضياع الأبدى؟؟

التقى بها خميس فى المساء مصادفة، ولعله صنع بنفسه هذه المصادفة:

- «يا ابنة العم.. أنا منك وأنت منى..».

- «القرابة غير الحب يا خميس».

اعتصم بالصبر، وتمتم:

- «الدم الذى يجرى فى عروقك من دمى، وشرفك من شرفى».

- «والشرف ليس كالماء والهواء.. مشاعًا بين الناس.. كل مخلوق له شرفه الخاص».

قال وقد أحنقه الغضب:

- «برغم كل شيء.. فلسوف نتزوج..».

- «أتشعر بالرضا حينما ترتبط بامرأة ترفضك؟».

- «أشعر بأقصى السعادة حينما يضحك منزلي..».

- «الحب في نظرك استيلاء، فهل هذا شرع الله؟».

- «فماذا يكون إذن يا ابنة العم؟».

- «كلمات ليس لها معنى.. وإلا فكل فتيات القبيلة يعانين التعاسة والشقاء..».

- قالت في تحدٍّ:

- «إنهن كذلك..».

ضحك خميس في خبث، وتمتم:

- «لكنهن يعشن، ويغنين وينجبن الأطفال ويعتنين بأنفسهن، ويتشبثن بالحياة، ويصلين ويصمن».

- «ومع ذلك فهن لسن سعيدات..».

اقترب منها، ولمس كتفها فارتعدت وابتعدت عنه، ولكنه قال:

- «سنتزوج.. وننجب أطفالاً.. ثم تنسين هذه الخزعبلات..».

أطبقت العيون، واستولى النوم على البشر والحيوانات، وساد الصمت قمم الجبل ودروبه الكثيرة، وامتد الظلام حتى كسا كل شيء. . وفى الصباح صاح على زيد زيدون. .

- «مريم. . مريم. . ».

فلم يعد إليه سوى الصدى.

- «أين ذهبت؟».

قالت العجوز، وهى تخطو متثاقلة مرتجفة:

- «لا أدرى. . لقد شعرت بها وهى تخرج كالعادة قبل منتصف الليل. . لعلها أغفت بعيداً تحت إحدى النخلات».

وبحثوا عن مريم فى كل اتجاه. . فلم يعثروا لها على أثر. .

كان الحارس يغط فى النوم على باب المستشفى، وتباشير الفجر تلون الأفق الشرقى، والبحر نائم يغمغم بلحن هادئ ينضح بالأسرار والغموض، والسحر والمصابيح الذابلة تلقى بضوء واهن. . وتسللت مريم صوب بيتى، وأخذت تدق الجرس. . لم أنزعج، فقد تعودت أن أسمع دقات الجرس فى أى وقت. . أنا طبيب. . والمرض لا وقت له. . قد يأتى المتألمون فى أية ساعة. .

بابى مفتوح دائمًا لكل الآلام. . لا أستطيع أن أتجاهلها أو أصدها. . ذلك أنا. . بل وكل طبيب جنّد نفسه للحرب ضد

العدو الكبير الألم . . سواء استقر فى البدن، أو نشب أظافره فى القلب أو النفس . . وعندما فتحت الباب فوجئت بمريم . . آه . . «صباح الخير . . هل عاودك المريض . . ؟ تستطعين أن تنتظرى فى المستشفى سوف آتى بعد دقائق» .

كانت شاحبة لا هثة فى عينيها دموع . . وإن شعرت برضى خفى لمجرد رؤيتها، ودفعت مريم الباب ودلفت إلى الداخل . . إنها تبدأ معى رحلة المتاعب من جديد وغداً تنطلق الشائعات . . لا يهم فأنا مسافر اليوم إلى دبى، بعد أن تقرر نقلى بعيداً عن رأس الخيمة، مريم بالتأكيد لا تعرف ذلك، قالت مريم :

- «لست مريضة . . » .

- «لماذا أتيت إذن؟» .

- «أتكره لقائى؟» .

- «حاشا لله ! !» .

- «لقد هربت منهم . . » .

صحت فى دهشة :

- «ماذا؟» .

- «لن أعود إلى الجبل . . » .

- «هذا جنون . . » .

- «تركت ورائى كل العذاب . . » .

- «لا أفهمك . . » .

- «وهل فى الجبل يا طبيب غير الفقر والحقد والعمى؟» .

قلت وأنا أبتلع ريقى فى ارتباك :

- «أنت واهنة ، سوف يأتون وراءك . . إنها كارثة كبرى» .

- «لن يرونى . . » .

- «وأنا مسافر» .

- «إلى أين؟» .

- «لقد تقرر نقلى إلى دبى . . » .

- «هذا أفضل . . سآتى معك» .

دق قلبى ، همست :

- «هذا مستحيل . . . » .

- «لماذا؟ ألا تريد خادمة تخدمك؟» .

- «أنا أعزب . . وأهلك لن يتركوك . . وإذا رآك أحد معى الآن فالله وحده يعلم ما سيحدث . . » .

صمتت برهة ، ثم قالت :

- «أعـرف الطريق إلى دبى. . أعطنى عـشـرة ريالات. . سوف أركب سيارة أجرة، وسأنتظرك فى المكان الذى تحدده فى دبى. . أسـرع قبل أن يسفر النهار. . الحارس نائم. . لم يرنى أحد. أسرع». . كانت تتصرف بسرعة وحزم، وتفكر فى كل شىء دون تردد، ووجـدتنى أخـرج لهـا مـائة ريال وأضعها فى يدها. . وما إن أغمضت عينى ثم فتحتهما، حتى وجدت مكانها خاليًا. . لقد ذهبت. . وسمعت بعد لحظات اصطفاق الباب!!

لو علم الشحوح بما يجرى الآن لقطعوا رقبتى. . لماذا لم أتصد لحماقتها، وأرفض مشروعها الجنونى وأطردها شر طردة؟! لماذا لا أكون حازمًا فى مثل هذه الأمور، فأغالب هواى، وأنظر إلى مستقبلى والظروف المحيطة بى؟! دائمًا أجدنى مشدودًا إلى المجهول وخوض التجارب، حتى لو كانت تجارب مخيفة. . وتراءت لى عيناها الجميلتان المحتقنتان، وأطل على خيالى وجهها الشاحب الغاضب، فارتجفت. . لكن آه. . الشحوح لا ينسون ثأرهم، ويقتفون الأثر فى مهارة. . وحاسة الشم والحس عندهم قوية. . إنهم لا شك يمشطون الأماكن الآن لسلاح المشاة حين يحتل موقعًا. . ويا ويلها إن رآها أحد. . إن العنزة لا تضل طريقها فى الصحراء الشاسعة، كل بدوى يعرف حيواناته وطباعها

واتجاهاتها. . ولا تضل عنزة، ولا يفقد حمار أو ناقة. . لابد أن يعثر البدوى على ضالته. . أنا أعرفهم، آه حسنًا، ليكن ما يكون، عليَّ الآن أن أحزم حقائبى، وأجمع حاجاتى، ويجب ألا أنسى كتبى. . تلك الأفكار التى شكلت لى عالمًا خاصًا غريبًا مختلطًا. . الكتب جزء مهم من وجودى، وبعد ساعات سيأتى الطبيب الجديد وسيحل محلى، ويوقع لى على إخلاء الطرف. . وسوف أركب السيارة نفسها التى أتت به وأنطلق إلى دبى. . فى الصباح كان المرضى يحيطون بى من كل جانب، كلماتهم الساذجة الطيبة تثير انفعالاتى:

«لماذا تتركنا يا طبيب؟».

- «سنترك المستشفى فور رحيلك».

- «أنت إنسان طيب. .».

- «رافقتك السلامة. .».

- «لا نريد طبيبًا سواك».

وأنا أهز رأسى شاكرًا، أعرف أنها كلمات لمجرد المجاملة وإن كانت تعبر بصدق عن حقيقة مشاعرهم. . عندما يأتى الطبيب الجديد. . ويمارس عمله كالمعتاد سوف ينسون كل شىء. . أو أصبح مجرد ذكرى، ما أكثر الذين يروحون ويجيئون! إننى أذكر جيدًا يوم أتيت إلى هنا. . استقبلونى

بفتور، ظنًا منهم أن ذلك واجب فى أعناقهم للطبيب الذى رحل، وبعد أيام قليلة تغير كل شىء. . وجدت نقدًا كثيرًا يوجه إلى زميلى السابق والبعض هاجمه بشدة وطعن فى سلوكه، كان أحد المضمدين يهمس فى أذنى قائلاً: «كان يسرق دواء المستشفى ويبيعه للصيدليات بالاشتراك مع بيتر. . بيتر هذا ملعون يا دكتور». . وكانت إحدى الفراشات تميل على أذنى قائلة: «كان الطبيب السابق يعنى. . أقصد أن نظراته كانت زائغة. . ربنا يستر علينا وعليه». . أما أمين المستشفى فقد كان يتهم زميلى السابق بأنه كان يستولى على بعض الأطعمة والمخصصات المتعلقة بالمرضى، والغريب أننى علمت عكس ذلك فيما بعد وتيقنت أن الذى اتهم بذلك هو أمين المستشفى، وأنه بسبب ذلك وجهت الإدارة إليه إنذارًا نهائيًا بالفصل. . أمام كثرة الكلام والاتهامات، جمعت هيئة المستشفى وحذرتهم من كثرة الاتهامات ومنعت الحديث عن زميلى السابق منعًا باتًا. . ترى هل سيحدث لى اليوم ما حدث لزميلى بالأمس؟- لكن أين «فاتسالا»؟ إننى لم أرها مع أنى أقضى ساعاتى الأخيرة. . لكن زميلتها قالت:

- فاتسالا مريضة ولن تنزل إلى العمل اليوم». . أعتقد أنه من الضرورى أن أذهب للاطمئنان عليها كطبيب، وأن أودعها كمسافر، ورغم انفعالاتى المتعددة كنت متمالكًا لأعصابى

وأحاول أن أبتسم، روضت نفسى على الابتسامة حتى ظلت مطبوعة فى بلاهة على ثغرى . . الحقيقة أن النقل فى البداية كان مفاجأة لى لم أكن أتوقعه . لا شك أن أغلب الأطباء يميلون للعمل فى مكان كدبى ؛ لأنه أكثر راحة بالنسبة لجوها الاجتماعى، وتوفر جميع الأشياء التى يرغب فيها الإنسان، وكثرة عدد الزملاء والأصدقاء والأقارب، لكن نقلى المفاجئ أثار فى نفسى شيئًا من الضيق لا أعتقد أن هناك سببًا سوى الشائعات التى انطلقت من حولى، كانت رئاستى واثقة من براءتى برغم تقولات المغرضين وخاصة الملعون «بيتر»، لكن الإدارة تريد أن تسد ثغرات المشاكل وتقضى على الشائعات فتجرى مثل هذا التغيير السريع .

أنا ذاهب إلى «فاتسالا» . . لكن صورة مريم تحلق فوق رأسى . . هذا الاختلاط فى ذهنى يربكنى . . مريم . . «فاتسالا» . . الانتقال . . الماضى بما فيه . . أشياء كثيرة كلها تتآزر فى جعلى أسيرًا، وأنا فى دوامة من الأفكار . . «فاتسالا ماذا بك؟» . قالت والدموع عالقة بأهدابها :

- «لا أستطيع أن أنهض من فراشى» .

- «أنفلوانزا؟» .

- «لا ، رأسى يكاد ينفجر . . جسدى كله يؤلمنى . . » .

ما أكثر الأعراض النفسية فى أيامنا هذه . . إنها الشىء الذى

أقف أمامه حائراً فى أغلب الأحيان، وأغلبها أحلام مكبوتة تريد أن تتحقق وأنا لست ملك الكون، لأعطى من أشاء وأحب من أشاء.. أنا لا أملك حتى نفسى.. لا أستطيع أن أوجهها إلى النفور أو الرضى والحب أو الكراهية.. لا أملك سوى العزاء لنفسى وللآخرين.. وأحيانًا أذرف الدموع، أو أبذل كلمات المجاملة دون تحفظ.. أنا عبد ضعيف مقهور.. وأخيراً قلت:

- «يعز علىّ فراقك يا «فاتسالا»..».

-غمغمت وأهدابها تزداد ابتلالاً بالدموع:

- «الفراق..».. ثم تنهدت قائلة:

- «عالم تعس».

- «لن أنسى ما حييت الفترة الجميلة التى عملنا فيها معًا..».

- «سوف تنسى..».

- «ماذا تقولين يا «فاتسالا»؟..» ضحكت ضحكة يائسة، وقالت: «لقد نسيتنى وأنا إلى جوارك..».

- «تتوهمين أشياء لا حقيقة لها..».

- «أعرف أنه العزاء ولا شىء غير ذلك..».

نظرت إلى بشرتها السمراء، قرأت على وجهها نبضات قلبها الأبيض إن صح التعبير، إن فى «فاتسالا» أمومة خالدة،

أشعر بعطفها وولائها عميقين صادقين، إنها تذكرنى على الرغم من أنها فى ريعان الشباب بجدتى الطيبة التى كانت تجلس إلى جوارى أثناء النوم وتحاول باستمرار أن تحكم الغطاء حول جسدى فى ليالى الشتاء الباردة، وتقص علىّ الحكايات الجميلة عن الأنبياء.. والحور العين.. و.. و..

- «يا «فاتسالا» العزيزة.. لا يمكن أن ينساك أحد..».

- «كان حلمًا رائعًا..».

- «والأحلام يا «فاتسالا» هى الحياة..».

- «ليت الأمر كذلك..».

- «الحقيقة مرة يا «فاتسالا»..».

- «المرارة أنا أستشعرها..».

- «العمر لم ينته بعد..».

- «والعمر عندى ليس بالأيام.. العمر هو لحظات السعادة» ثم أخذت تشهق باكية، جلست جامدًا لا أستطيع الحركة، تلك هى النقطة الحرجة التى تصادفنى كثيرًا فى حياتى؛ أن أقف تحت بعض الظروف فلا أتقدم إلى الأمام ولا أتراجع إلى الوراء، أحاول جاهدًا أن أقضى على هذا الضعف أو التردد أو الجمود فأفلح قليلاً لكننى كثيرًا ما أظل هكذا.

وهمست عاجزًا:

- « «فاتسالا» . . لم تبكين؟» .

- «فاتسالا» أنا لم أسئ إليك . . » .

نظرت إلىّ بعينين يطفر منهما الدمع ، وهمست فى غيظ مكتوم .

- «إما أنك تتغابى . . أو . . لا تحبنى . . » .

- «ما كرهتك فى يوم من الأيام» .

ودق الباب ، ودخل الناطور ، قال :

- «يا طبيب . . السيارة وصلت من دبى ، وبها الطبيب الجديد . . » .

يا قلبى الحائر . . انطلق . . انطلق . . ولتجففى دموعك يا «فاتسالا» . . إنه الرحيل . . وأنا المسافر دائمًا . . من حال إلى حال . . وفاض قلبى بالحزن القديم . . حيث تعزف آلامى وحرمانى قيثارة أبدية ، وأنا الجوّاب بين السماء والأرض ، والمنطلق عبر غابات المجهول ، أبحث دائمًا عن الدروب المزهرة ، والينابيع الطاهرة ، وأشعر دائمًا أن يد الشر الضافى قد لوثت الكثير من مباهج الحياة ، وجعلت من روائع القيم ألعوبة تتلهى بها . . والناس يعيشون عصر الحيرة الكبرى . . ترى متى أشعر بالأمان والاستقرار؟



٨

اندلعت فى جبل الشحوح فتنة ضارية ، واستلّ الرجال الخناجر وبعضهم شهر غدارته وانطلقت الشائعات ، فمن قائل بأن مريم قد أخفاها عبد الله بتدبير محكم ، ومن زاعم أن خميس ابن عمها قد قضى عليها ، وادعى البعض الآخر أن المطوع حسن بن محمد قد سحر لها فاختطفتها العفاريت- ولم يسفر البحث عن شىء ذى قيمة ، ووقف أبوها شامخًا ، وإن كان فى قرارة نفسه يشعر بالتضاؤل والخجل ، وصرخ : «إن ابنتى يجب أن تظهر ، هناك أيد خبيثة لعبت فى الخفاء وليس الأمر أمر فتاة اختفت ولكنه شرف القبيلة ، وكرامة الجبل كله ، كرامة شيخكم من كرامتكم ، وإذا لم تظهر «مريم» فسأشرع سلاحى ولن أرحم ، وأنا لا أتهم فردًا بعينه فالأمر شائك وأنا لا أريد أن ألقى التهم جزافًا» .

لكن نداءه ذهب أدراج الرياح ، فأخذ الرجل يقطع الساحة ذهابًا وإيابًا والحيرة والقلق يلعبان بلبه ثم أوى إلى ركن فى

مسكنه، وانكفأ صامتًا لا يدرى ماذا يفعل، وسمع صراخًا وضجة فهرول إلى الخارج، لقد وثب خميس على عبد الله وأخذ بتلابيبه صائحًا :

- «إذا لم تفصح عن مكانها فسأسفك دمك» .

- «تلك محاولة خسيسة لإخفاء جريمتك . . أنت قتلتها» .

وأخذا يتبادلان التهم، كما يتبادلان اللكمات والصفعات، ثم استل كل منهما خنجره ووقفا يفصل بينهما حيز ضيق، ينظر كل منهما للآخر بعينين يتقدان شرارًا، ويهز يده بخنجره مهددًا، ومن حولهما عدد من رجال القبيلة، يقفون متوترين، لا يدرون كيف يسدون ثغرة الفتنة واحتمالاتها المرعبة . . لكن على زيد زيدون قدم مكفهر الوجه، ثم اقترب من خميس ونزع عنه خنجره فلم يبدِ أدنى اعتراض، وتوجه صوب عبد الله الذى مد يده بخنجره مستسلمًا دون أن يتفوه بكلمة، وهتف على زيد فى حزم :

- «اذهبوا إلى أعمالكم . . أنا القاضى هنا . . بل أنا الخصم والحكم . . ابنتى لا بد أن تظهر مهما كان الأمر . . كلكم خصوم . . وفى الوقت نفسه كلكم معتدى عليه، ولن يهدأ لى بال حتى أعرف الحقيقة . . انصرفوا» . . انفضوا بهدوء يشى بكثير من الانفعالات والأفكار، بينما خرجت المرأة العجوز من مسكن شيخ القبيلة، وقالت بصوت راعش :

- «ابحثوا عن حسن بن محمد. . هؤلاء «المطاوعة» يستخدمون الجان. . ».

ووجدت كلماتها استحسانًا لدى أغلب الرجال المنصرفين، فتوقفوا مرة ثانية، وتنقلوا بنظراتهم بينها وبين شيخ القبيلة، واستطردت العجوز قائلة:

- «هذا الساحر، إن لم يكن قد فعل فعلته، فلا شك أنه يعرف طريقها. . »، ويبدو أن على زيد قد استساغ كلمات العجوز ووجد فيها شيئًا من التعقل، أجل إن لم يكن حسن بن محمد اختطفها فهو على الأقل قد يعرف أين ذهبت بوسائله الخاصة، إنه ورث عن آبائه بعض المخطوطات القديمة ذات الأهمية البالغة، بعضها مكتوب بدم الغزال، وبها أساليب تكشف المخبوء، وإماطة اللثام عن عالم الغيب واستخدام الجان فى ربط قلوب المحبين أو التفرقة بينهم، وبها قسم خاص للتداوى بالبذور النباتية، أو الرقى والتعاويذ، وبها أشياء عن الطالع والنجوم، والفلك والكوارث المحتملة، والبشريات المتوقعة. . حسن بن محمد موسوعة علمية كبرى، يعترف له أهل الجبل بالتفوق والتميز. .

والرجل ذكى برغم خبثة، ويمتلك ثروة لا بأس بها، وله نفوذ غريب على الجميع، وشيخ القبيلة يلجأ إليه فى بعض

الظروف الحرجة، عندما يكربه أمر أو تعضله مشكلة . . ولم يكن على زيد زيدون من السذاجة بحيث يستعمل سلاح التهديد مع «مطوع» هذا شأنه، فلم يكن هناك مناص من أن يلجأ إلى الحيلة والدهاء . .

- «حسن يا بن محمد . . أنا منكم وأنت مني . . نحن إخوة . .» .

قال المطوع :

- «بالتأكيد . .» .

- «عار كبير أن تختفي ابنتي . .» .

غمغم المطوع :

-«كله مكتوب في اللوح المحفوظ» .

- «أواثق أنت من ذلك؟» .

- «كما أثق بوجودك إلى جواري» .

- «وماذا في اللوح أيضًا» .

- «لا أستطيع أن أتبين السطور . . في اللوح المحفوظ أسرار وأسرار . . وأخبار وأخبار، يصعب فك طلاسمها في كثير من الأحيان . . وأخذ يضيق عينيه، وينظر إلى الأفق البعيد» ويتمتم :

- «مريم بنت على زيد زيدون . . أين أنت يا بدر البدور، يا

تاج الجمال والرفعة، يا بنت الأكابر، إنى أرى شبحها يتسامى كالطيف.. ملفعة بشال من السحب البيضاء.. تغسل وجهها ويديها بماء الكوثر..».

صرخ على زيد زيدون فى رعب:

- «هل ماتت؟».

- «كل شىء بقضاء..».

- «أريد أن أعرف..».

- «ما أنت يا على حتى تعرف؟.. أنت حشرة..».

استبد بعلى الضيق، وقال محتدًا:

- «ما هذا الكلام؟!».

-«ليس من عندى.. إنه موحى به من بعيد.. لست أنا الذى يتكلم..».

سعل فى أسى:

- «أهى على قيد الحياة؟».

صرخ حسن كالمجذوب:

-«حىٌّ لا يموت.. فتقربوا إليه بالصلاة والقنوت..».

- «لم تزدنى إلا حيرة..».

- «لسنا مصدر الحيرة، ولكنه قصور عقلكم وانحطاط أرواحكم. . ».

تململ على فى همٍّ، وقال:

- «آمنت بالله. . ».

قال المطوع:

- «يا أبناء الجبل الضال. . اللعنة تنتظركم».

- «نحن قلّما نعصى الله».

- «الإثم كالشرك أخفى من دبيب النمل».

- «ونحن نطيع الخالق فى حدود معرفتنا».

- «تتسترون وراء الجهل. . وتحقرون العلماء وتعاملون المطاوعة بسخرية واستهتار. . يا عبدة الدرهم والدينار. . ولا تخافون الواحد القهار. . النار. . النار. . يا شيعة الآثام والأوزار».

أمسك على بكمه فى ضراعة: «هناك. . على شفا جرف هار. . ».

- «ما هو؟ وأين الجرف الهارى؟».

- «فى ملك الواحد القهار».

ابتلع ريقه، ثم استطرد:

- أغلقت باب الجنة فى وجهها، ولم يفكر واحد فيكم فى إرشادها . . كنت أريد لها النعيم والخير . . كنت سأطعمها فى صفائح من الفضة، وأسقيها فى كئوس من الذهب، وأفجر أنهار السعادة تحت قدميها . . لكنكم حرمتموها المجد والفخار . . أيها الفجار . . ».

ومد على زيد زيدون يده، وقد فهم مقصده:

- «يدى فى يدك . . أعاهدك على أن تكون لك عند ظهورها . . ».

نظر إليه المطوع بعينين تشرق بالسعادة، وتمتم:

- «تلك هى التوبة التى تغسل ذنوب الجبل . . ».

وصافح شيخ القبيلة شاردًا، وهمس: «هى حية ترزق . . تتهاوى بين ماءين . . ماء هنا وماء هناك».

- «لكن ما السحاب؟ وما الماء الذى تغسل فيه وجهها و . . ».

وقف المطوع وصاح مقاطعًا:

- «قف عند حدك يا على . . ولا تخض فيما ليس لك به علم، غير أنى أؤكد لك أن عروس الجبل ستظهر . . وسيكون لظهورها رنة فرح كبرى . . وستقام الأعراس فى أنحاء الجبل . . وعلى الشاطئ الجميل . . إليك عنى . . اذهب والزم

بيتك . . وانتظر أيها الملهوف . . حتى تدنو القطوف . . وغداً تلتئم الجروح . . يا سيد جبل الشحوح . . » .

وفى اليوم التالى اختفى المطوع حسن بن محمد ، ولم يعثر له هو الآخر على أثر . . خرج الرجال صوب البحر فى رحلة صيد ، كانوا ينحدرون من الجبل فى صمت عاصف ، وكان بين الرجال خميس وعبد الله ، وكل منهما يفكر لا شك فى الآخر ، لكن يكاد يجن ، فهو يعلم أن عبد الله قد قضى يومين فى هذا الأسبوع بعيداً عن موطن القبيلة ، وخميس يريد أن يعرف كل شىء ، الشك يأكل قلبه وهو لايبرِّئ عبد الله مما حدث ، بالتأكيد- حسب ظنه- أنه ضالع فى تدبير المؤامرة المحكمة :

اقترب خميس من عبد الله . .

- «أين كنت؟» .

- «هذا شأنى» .

قالها عبد الله فى عنف وتحدٍّ . .

- «قلت أين كنت؟» .

- «كنت أبحث عنها» .

- «وما شأنك؟» .

- «إنها بنت القبيلة كلها . .» .

ربما ارتاح خميس لهذا التفسير، لكم يضايقه أن يكون عبد الله جاداً فى البحث عنها من أجل العاطفة القديمة التى تربط بينهما . . أما أن يبحث عنها حفظاً لكرامة القبيلة، فهو نوع من التآزر والتعاطف العام الذى يربط بين أفراد الجبل وسكانه . .

- «أتريد أن تقول إنك لاتعرف مكانها؟» .

- «ولماذا أبحث عنها إذن؟» .

- «قد تكون فى زيارة محرمة . . » .

التفت إليه عبد الله، وقال: «خميس . . لم لا تكون أكبر من الحزازات الشخصية» .

- «أنا أعرفك . . » .

- «أنا رجل . . » .

قهقه خميس، وهتف:

- «قد نختلف فى ذلك» .

وضع عبد الله يده على خنجره، وارتجفت أوصاله، وشحب وجهه، نظر إلى خميس فى غيظ:

- «أستطيع أن أسحقك» .

- «أنت؟» .

وتدخل الرجال، قال العقلاء منهم: نحن بصدد النزول

إلى البحر، ونريد أن نبحث عن لقمة العيش، وفى الإمكان تأجيل ذلك الصراع إلى الأبد- اختفت مريم- لم ينلها أحد، ويجب ألا تسيطر على الجميع سوى فكرة البحث عنها، والتغلب على الهواجس والشكوك. . كان الجميع يعيشون فى شبه سلام. . الحقيقة أن «مريم» سامحها الله أثارت من الزوابع ما يكفى لاضطراب الأمن فى مدينة كرأس الخيمة. فما بالك بقبيلة على جبل الشحوح؟

قال رجل من الرجال: «النساء ناقصات عقل ودين».

وقال ثان:

- «إنهن شياطين صغيرة. . أتباع الشيطان فى الأرض، وسبب كل بلية».

وقال ثالث:

- «يقول المطوع حسن بن محمد عنهن: إن الله خلقهن من ضلع أعوج. .».

- «الاعوجاج طبع فيهن».

وضحك الرجل الذى يمسك عادة بسكان السفينة، وقال:

- «ولماذا تزوج «مطاوعنا» الزاهد من ثلاث نساء؟ والغريب أنه كان يريد الرابعة. .».

هم يعرفون أن حسن بن محمد كثيراً ما يهاجم النساء فى صلاة الجمعة وأثناء الخطبة يرميهن بالعقوق والفسوق، وفى وعظياته على سفح الجبل، أو أثناء «الديوانيات» التى يجتمع فيها شمل الأحباب ويتناولهن بالسب واللعن، ومهنته التى يمارسها تتناول كتابة الرقى والتعاويذ السحرية، لكى يجمع قلبين متنافرين، أو يفرق بين متحابين، وكثيرات من المصابات بالصداع المزمن أو العقم أو الأمراض المستعصية يلجأن إليه كى يخفف من آلامهن، إنه ميدان علمه الأكبر بين النساء ومع ذلك يسدد إليهن سهام غضبه وثورته، قال أحد الرجال:

- «إبليس هو الذى أخرج آدم وحواء من الجنة . . ».

كان عبد الله يدرك معنى تلك العبارة، إنها اتهام صريح لحسن بن محمد بأنه قد يكون وراء اختفاء «مريم»، وربما يواصل جهوده السحرية ليدفع بغريمه فى حبها إلى الهروب هو الآخر، فالمطوع ذو قوة خارقة فى طرد المحبين من الجنة حتى ينعم فيها هو، وينال حظه من المتعة والسعادة.

قال خميس: «عندما تتجلى الحقيقة، سيعرف الجبل عن بكرة أبيه كيف يكن العقاب الرادع». . انطلقت المركب عبر البحر الكبير لساعات، والرجال يرمون بالشباك، ويجمعون الأسماك ويتناولون أقداح القهوة، ويصارعون الموج فى

بسالة، وبينما كانوا يفرغون الشباك ذات مرة، صاح أحد الصيادين:

- «احذر يا عبد الله.. انظر سمكة «قرش»، لو أمسكت بأصبعك لأكلته..».

أمسك عبد الله بسمكة القرش من ذيلها ثم رفعها، وضرب رأسها بخشب السفينة عدة مرات حتى خمدت حركتها، ثم قذف بها إلى أحد الرفاق، وقال:

- «أعدها ثم انضجها على النار.. إنى جائع.. سمك القرش ليس لذيذ الطعم تمامًا، ولكنى أريد أن آكل منه..».

سدد إليه خميس نظرات حانقة، ويبدو أن خميس توهم تحديًا خفيًا وراء كلمات غريمه حين الحديث عن سمك القرش، وقال عبد الله: «لِمَ تنظر إلىّ هكذا؟».

قال خميس فى جفوة ظالمة:

- «كلماتك تثير سخريتى..».

احتقن وجه عبد الله، لم يعد يطيق صبرًا، قال بصوت كالفحيح:

- «أيها القرد.. إنك تثير اشمئزازى».

اندفع الرجلان كل منهما صوب الآخر فى سرعة البرق،

والتحما فى عراك خاطف متوحش، تبادلا فيه اللكمات والصفعات والركلات، وقد تعرض خميس لعدد أكبر من الضربات، ثم انهار على أرض السفينة، فبرك عليه عبد الله، فحاول أن يعتصر عنقه بقبضة حديدية متشنجة. . والرجال يحاولون تخليصهما، وفجأة صرخ عبد الله، لقد استطاع خميس أن يلتقط أذن عبد الله بين فكيه، ولم يتركه إلا والدماء تنزف منه، ثم قام من تحته، وهو يمضغ قطعة من اللحم البشرى ويلوكها بأسنانه.





قال قائد السفينة :

- «سنكتفى الليلة بما جمعناه من صيد . . ولتحكموا وثاق عبد الله وخميس بالحبال ، وليوضع كل واحد منهما فى طرف من أطراف السفينة ، حتى نعود إلى الشاطئ ، ولن يخرجا معنا للصيد مرة ثانية . . » .

كانت السفينة تتأرجح أثناء العراك بصورة مزعجة ، وأكوام السمك تضطرب وتتواثب ، وكأنها تصارع هى الأخرى ، والليل حالك السواد ، والبحر يمتد إلى بعيد فى غموض ممزوج بالخوف وتمتم الربان فى ضيق :

- «لو انقلبت سفينتنا الصغيرة لضعنا فى هذا التيه إلى الأبد ولأكلنا سمك القرش . . أنتم مجانين . . » .

لم يعلق أحد بكلمة ، بل بقى الجميع صامتين ، فاستطرد الربان :

- «أمن أجل امرأة تفعلون هذه الأفاعيل؟ غداً تتزوجون وتنهلون من كأس القلق والضيق.. ثم تصبح المرأة مجرد عبء ثقيل.. إن ما تفعلونه ليس هو الحب.. أنتم تكذبون.. إن ما أراه صورة صفيقة للأنانية والحقد والطمع.. أنتم إخوة.. هكذا علمتنا حياة الجبل وحياة البحر وتقاليد القبيلة.. والدين قبل كل شىء.. أنت تخونون الجبل والبحر والقبيلة، وتنسون آداب دينكم.. ماذا جرى للناس؟ الشقاء فينا سببه البعد عن الله..».. لف الصمت رحلة العودة الحزينة.. عبد الله أذنه تؤلمه وتنزف دمًا، وخميس لا ينسى هزيمته وقد اعتلاه غريمه، استيقظت الفتنة، ولن ينام الثأر، وقد سالت قطرات دم، ومن بعدها تتدفق الدماء غزيرة من أجل امرأة مدللة، وتمتم الربان بعد فترة صمت طويلة:

- «المرأة فى نظرى لا تساوى درهمًا..».

ولما لم يعلق أحد بكلمة، استطرد وهو يتثاءب:

- «كلهن قذرات.. لو فكرت فيما يفعلن ويجلبن من كوارث؛ لوفرن للحى السلام والصفاء.. والمال والنساء شيطانان يعصفان بأمن الوجود.. لو رفعت امرأتى رأسها بكلمة اعتراض لحطمت جمجمتها، عندما يكون للنساء رأى يفسد كل شىء، ويتحول الرجال إلى أدوات خبيثة فى أيدى الشيطان..».

وقرب الشاطئ فك الربان وثاقهما، ووضع حارسًا يقف إلى جوار كل واحد منهما، وكان لدى الشاطئ نساء وأطفال ورجال ينتظرون الرزق، وتعاون الجميع فى نقل السمك إلى الشاطئ، أما الربان فقد قصد لتوه شيخ القبيلة «على زيد زيدون» فالأمر لا يمكن السكوت عليه، ولا بد من البحث عن حل، وإلا انفرط عقد القبيلة، وطمع فيها أعداؤها، وصار تفككها مضرب الأمثال، وحديث الركبان. . ومن يدرى قد يأتى أحد لإخضاعنا تحت سيطرته.

- «ونحن الذين عشنا أحرارًا فوق أرضنا لسنين طويلة. .».

⊛⊛⊛

المطوع حسن بن محمد رجل ذكى جسور، لا يعرف اليأس، ولا يستسلم للهزيمة، أخذ يفكر ليلة كاملة فى أمر «مريم» مَنْ معارفها وأقاربها؟! أى الأماكن تعرف؟ وما المناطق التى تعودت على زيارتها؟

وضع كل شىء أمامه، ودرسه بإمعان، ثم قرر البدء فى البحث، إنه المرجع الأول والأخير للقبيلة عليه يعلقون الآمال، وإليه يلجئون فى المعضلات، ولكم يكون سعيدًا عندما يحقق نجاحًا عجز عنه الآخرون، إنه يريد لنفسه الفخر والتفوق دائمًا لكن هذه المرة يندفع لشعور آخر غريب، لا يهمه

أن يقف الناس مبهورين أمام ذكائه أو حسن تصرفه، ولا يكترث كثيرًا بتحقيق رغبات شيخ القبيلة، أو إزالة سحب القلق التى تظلل الجبل منذ اختفاء مريم، المهم عنده أن يحصل عليها هو لنفسه. . وسيان لديه أن انبهر الناس أو لم ينبهروا، رضوا أم سخطوا فهذه الشيطانة الصغيرة استطاعت أن تستولى على لبه، وتملأ فراغ روحه، تمكنت من سويداء قلبه، وسيطرت عليه بالحب. . تمردها يشجيه، شبابها يشتت فكره، عيناها تجعل رأسه يدور، هو يريدها بأى ثمن، فليتفرغ لها وليهب وقته وراحته للبحث عنها، وهو على استعداد أن يبدد كل مدخراته الغالية كى يجدها ويفوز بها، كان يجلس شاردًا، ثم يستخرج ورقة وقلمًا ويكتب بعض أبيات الشعر الغزلى الرقيق، يمزج فيها الفصحى بالعامية، وقد ينصب الفاعل ويرفع المفعول، أو يتجاهل أدوات الجزم والنصب بالنسبة لآخر الفعل، وكان يردد هذا الشعر فى سعادة بالغة، موقنًا أنه أروع شعر سطرته براعة شاعر فى عرض الصحراء وطولها، انطلق حسن إلى الأحياء المجاورة باحثًا عنها ومنقبًا كان يقضى يومًا أو يومين، يتنسم الأخبار، ويسأل أصدقاءه من المطاوعة الآخرين، وشيوخ القبائل دون جدوى، ثم انحدر إلى رأس الخيمة، يتجول بين بيوتها المبنية من سعف النخيل «العشش» وفى حواريها الضيقة، ويقبع لدى حوانيت الخضراوات

والحبوب والبقالة واللحوم، ويحوم حول بيوت الحكام مستفسرًا من المطرزية (الحرس الخاص) والخدم، لعلها تكون قد لجأت إلى قصر من قصور تخدم فيه وتختفى عن العيون، وقد رجح أنها ربما تكون قد أخفت شخصيتها فى مثل تلك الأماكن، ولذا كان يتحرز من الخطأ، ويحاول أن يعطى أوصافها وملابسها التى يعرفها جيدًا، ثم يراقب المستشفى ويدقق النظر فى الداخلين والخارجين، وقد يبقى هناك فى رأس الخيمة أكثر من عشرة أيام.

وأخيرًا علم من أحد سائقى الأجرة، أن فتاة ركبت معه إلى دبى فى يوم كذا.. الساعة كذا.. وصفاتها كذا.. وأنها قد أعطته مائة ريال، وتسلمت الباقى، وعندما سأله المطوع عن مكان نزولها، قال:

- «نزلت وسط دبى، وكانت تائهة حائرة، وتسأل..».

وبرغم صعوبة الموقف إلا أن المطوع لم ييأس، لقد استطاع بعد جهد جهيد أن يمسك بطرف خيط، وتبدى له بصيص من نور وهو صبور لا يزعجه الانتظار، ولا يرهقه البحث، ولا يؤيسه التعب الطويل، إن فى قلبه طاقة هائلة تدفعه دفعًا لأن يجرى وينفق ويسهر الليالى ويدخل إلى الطرقات المتفرعة، ويصعد الجبال، ويخوض فى الرمال حتى يجدها؛ لأنه يريدها بعنف لا يستطيع له ردًا.. لم يعد يسير فى نطاق إرادته

وعزيمته، لقد أسلس قياده للمجهول فهو ينطلق دون أن يستطيع أن يضع حداً لانطلاقه، وكأنه يسابق الأحداث، ويغالب الزمن، إن دقيقة واحدة لا يفكر خلالها فى مريم، أو يبحث عنها، لهى عمر ضائع يدعو إلى الأسف والتحسر..

وحينما يبلغ «دبى» كان قد مضى عليه حوالى الثلاثة أسابيع.. وقف وسط الساحة القريبة من «السينما الوطنية» وقد مالت الشمس نحو الغروب، كان مرهقًا، ومع ذلك كانت اللهفة والشوق يعمران قلبه، وانتابته نشوة صوفية مباغتة، فرفع إلى السماء عينين ضارعتين، وتمتم:

- «الملك لك وحدك يا صاحب الملك الكبير.. أنا عبدك المستجير.. بقدرتك أستغيث.. لقد ازدحم الماضى بخطايا كثيرة.. لكنى لم أفقد ثقتى بك، وما تزعزع إيمانى قط.. وأنا الفقير إليك.. أضرع إليك أن تدلنى عليها.. إننى أخجل إذ أطلب هذا الطلب.. لكنى لا أستطيع أن أقهر أشواقى، ولا أخفى ما فى نفسى.. فأنت وحدك تعلم ما تكنه الصدور، كلما ازدادت مريم بعداً عنى ازددت شوقًا إليها.. أنا أريدها فى الحلال وفى حمى شريعة نبيك.. وأنا عبدك وابن عبدك.. أرهقنى التجول، وأعيانى البحث.. وأنا أتلفت فى هذا العالم الواسع باحثًا عن وجهها الصغير فى ملكوتك الضخم.. فمن أكون وأنا العبد العاجز المقهور، والمحدود الإرادة والقدرة؟!»

وانسكبت دمعة على خده الناتئ، وانحدرت إلى لحيته الطويلة، كان عريض الجبهة، واسع العينين، مستطيل الوجه، في مقدمة رأسه صَلَعٌ خفيف يختفي تحت «غطرته» غطاء رأسه الأبيض، وكان معه كيس من قماش سميك به قليل من الطعام وكتاب تنجيم قديم، وقلم وأوراق وعدد لا بأس به من الريالات تكفي مثله لأكثر من خمسة أشهر.. وخطا إلى الشارع الكبير المكتظ بالمشاة والسيارات، والذي تغمره الأضواء من كل جانب، وفي لحظات اندمج في جو الشارع، ولم يتذكر أن ينظر ثانية إلى السماء المرصعة بالنجوم..

●●●

أخذتها روعة المدينة، ومضت في شوارعها على غير هدى، تنظر إلى معروضات المحلات التجارية بعيون متسعة، لقد شد انتباهها الأزياء الجميلة.. أخذت تنظر إلى قمصان النوم الحريرية الرقيقة خلف الزجاج، وتشهق في استغراب، ثم تقف أمام التماثيل شبه العارية للنساء ومختلف الملابس الداخلية وتبتسم وقلبها يدق، ثم وقعت عيناها على فتيات ونساء يسرن في الشارع حاسرات الوجوه، وثيابهن أعلى الركبة وبلا أكمام، وبعضهن قد تركن ظهورهن عاريات والشعور منسقة بطريقة أو بأخرى وتلمع تحت ضوء الشمس، لكن بعض النسوة يرتدين البراقع والعباءات

السوداء، والسيارات تتزاحم، وداخل السيارات ألوان شتى من البشر، يجلسون فى هدوء وكأنهم لايخافون أحداً، أشياء كانت تراها فى المرات القليلة التى دخلت فيها السينما، وبعضها كانت تراه فى المحلات المصورة، لكن النسوة يمضين بعيون مفتوحة جريئة، أية جسارة وشجاعة!

كان عليها أن تنتظر الطبيب لدى باب المستشفى حسب الاتفاق، فهرولت تسأل هنا وهناك، أشار عليها بعض المارة أن تركب «سيارات أجرة» لكنها فضلت أن تقطع المسافة على قدميها، واستعانت ببعض الوصف والتوجيه من الناس، وبذلك أمكنها أن تصل إلى المكان المطلوب وأخذت تتملى الداخلين والخارجين، كانت ترى الأطباء والموظفين يروحون ويجيئون، والممرضات يتهادين فى خفة ورشاقة كالحمامات البيضاء، والابتسامة الحلوة تعلو وجوههن، ليتها كانت واحدة منهن، إذن لاستطاعت أن تعيش إلى جوار حبيبها إلى الأبد، ثم هناك نماذج من آلام البشر تمر أمامها، فتجعلها تشعر بالحزن العميق، هذا جريح، وتلك امرأة حبلى تتوجع، ورجل يحملونه على «نقالة» صغيرة فى إغماءة تشبه الموت، وطفل كسرت ساقه.. وآخر يضع ضمادة بيضاء على عينيه.. وسكران بين أيدى رجال الشرطة يسب ويلعن، ويثور ويسكن، ويضحك ويبتئس.. عالم غريب يموج بالحركة

والطرافة الممزوجة بالدموع . . وتمتمت بينها وبين نفسها : «أين هو؟! لقد طالت غيبته» .

لكنى لم آت إلا قبيل الظهر ، كنت أركب إلى جوار السائق في سيارة «لاندروفر» ولمحتها لدى الباب ، الحقيقة لم أكن أدرى ماذا أفعل ، فكرت طويلاً أثناء الطريق دون أن أهتدى إلى شىء بشأنها ، وعندما رأتنى جرت خلف السيارة التى دلفت إلى باحة المستشفى ، شعرت بالخجل والارتباك ، ونزلت بعد أن توقفت السيارة ، ودرت خلفها ، والتقيت بها :

- «انتظرى كما أنت يا مريم ، لا تتحركى من أمام المستشفى ، إن أمامى بعض الأعمال التى لا بد أن أنتهى منها أولاً . . » .

قالت فى شىء من الضيق الممزوج بالفرحة :

- «لقد مللت الانتظار» .

- «أنا موظف ، ومرتبط بمواعيد وإجراءات» .

- «لمَ لا تأتى أولاً وتضعنى فى مكان أمين ، ثم تفعل بعد ذلك ما تشاء؟» .

- «لا أعرف لى مكانًا بعد . . » .

نظرت إلىّ من خلف الخمار الأسود بعينين متألقتين تشيان بالحيوية والسعادة والعجلة ، دار رأسى ، لكننى سرعان ما أفقت .

- «لا تنزعجي، سأعود بعد قليل».

انتهت الطقوس الوظيفية من استلام وتسلم، كانت كلمات الترحيب من الزملاء تنصب فى أذنى دون أن أكترث لها، أخبرنى أمين المستشفى بأننى سأسكن مع بعض رفاقى؛ لأنى أعزب ولا يصح أن أشغل مسكنًا وحدى، وقعت فى حيرة، ماذا أفعل؟ إن مريم تربكنى وتمزقنى، أأرسلها إلى أهلها؟ الحل الطبيعى هو ذلك، لا مجال للعواطف والعبث، ولا بد أنى سأقع بسببها فى مشاكل لا حصر لها، ووجدتنى أقول لأمين المستشفى:

- «إننى أفضل أن أبحث عن سكن خاص وأتقاضى منكم بدل السكن.. هذا أفضل بالنسبة لى..».

- «لا مانع، فلنكتب ورقة بذلك..»، وعدت إليها كانت قلقة تجلس وتقوم، وتتلفت يمنة ويسرة.

- «يجب أن تبقى كما أنت.. أنا أبحث عن مسكن..».

قالت فى ضيق:

- «أى مكان.. إننى أستطيع أن أبنى لك عشًا على شاطىء الخليج»، ضحكت وأومأت إليها وانصرفت، لا بد من العثور على أى مسكن، فى أى مكان وبأى ثمن، فالفنادق لا تصلح، ومعى من المال ما يحل المشكلة، وقصدت أحد أصدقائى القدامى من البقالين، فأرشدنى إلى شقة صغيرة فوق

سطح أحد المنازل العالية، وأنهيت الإجراءات بسرعة فائقة، ثم أسرعت إليها فى سيارة أجرة، وأشرت إليها من بعيد، كان السائق الهندى ينظر إلينا بخبث، أنا لا أكترث، كانت الشقة خاوية ليس فيها أى قطعة من الأثاث، وصممت ألا يعرف أحد من الزملاء أو الأصدقاء مكانى، حينما دخلت نظرت هنا وهناك والسعادة تعلو وجهها الذى كشفت عنه الخمار، كانت سمرتها الفاتنة المشوبة بالحمرة ولون عينيها الآسرتين تنبئ عن بأس وثقة وسيطرة، وقصدت لتوها حوض الماء، وغسلت يديها ووجهها، قلت لها:

- «سأخرج الآن. . أغلقى الباب من الداخل ولا تفتحيه لأى طارق مهما كان. . لك مفتاح. . ولى مفتاح ولسوف أخرج لأحضر بعض الضروريات. .».

كنت أتحرك فى قلق وتوتر، يداى ترتعشان، وقلبى يدق، والعرق يتهاطل على جبهتى، وعيونى حائرة لا تكاد تستقر على شىء. ما هذا الذى أفعل؟إننى أمضى فى طريق شائك لا أعرف له نهاية، ألعب بالنار. . إننى أتذكر الماضى حينما كنت أثور للفساد السياسى الذى ترزخ بلدى تحت وطأته، كنت أنطلق هاتفًا ومن خلفى الطلاب، أحيانًا كانوا يسوقوننى إلى السجن، وأحيانًا أخرى كان ينهمر الرصاص، لكنى كنت أكرر العمل نفسه وبالطريقة نفسها، دون أن أفكر كثيرًا فيما

سوف يحدث، عشرات من النصائح كانت تصبها أمى فى أذنى دون فائدة، وأبى كان يشرح لى كيف أنى أتبع طريقًا خطرًا، وجدتى تحدثنى كثيرًا عن مستقبلى الوظيفى، والأسرة الكبيرة التى جعلتنى الأقدار مسئولاً عنها، كل ذلك لم يكن ليغير من خط سيرى، كلماتهم كانت تتساقط، وكأنها نداءات واهنة ضعيفة لا قيمة لها، ولم أكن أفكر فى كلماتهم إلا عندما أقع تحت طائلة العقاب وسخافات «البوليس السياسى».

الآن أمضى فى الطريقة الصبيانية بنفسها.. فتاة فى ربيع العمر.. وأنا.. ومستقبلى.. وتحدى التقاليد.. تقاليد البادية والجبل.. المهم أننى لا أعرف بالضبط ما سوف أعمله.. أستطيع أن أدعها تخرج بكلمة واحدة، لكنى لا أستطع أن أنطلق بهذه الكلمة، لماذا؟ لأننى ببساطة أريدها أن تبقى على الرغم من أن بقاءها قد يجلب لى أضرارًا وتعاسة بالنسبة لحياتى الاجتماعية.. حسنًا.. فلتبقَ.. وليكن ما يكون.. اشتريت سريرين صغيرين بمستلزماتهما وطاولة للطعام وقدورًا وأطباقًا وبضعة مقاعد.. ولم أنس بعض الثياب المنزلية لها، وغير ذلك من الأشياء الضرورية البسيطة لشقة خاوية.. وفى المساء كان كل شىء قد وضع فى مكانه وأصبحت الشقة منظمة ومرتبة، كانت تساعدنى فى حماس شديد، وكانت السعادة تطفح من وجهها، لم تكن خائفة،

ولم تخجل منى ، فقد رمت الخمار ولم تعد تضعه على وجهها منذ دخلت إلى هذا المكان ، وكانت تردد بعض الأغانى الجبلية التى تعذر علىّ فهم كلمة واحدة منها ، وأحضرت بعض الطعام ، ووضعته أمامها :

- «لا شك أنك جائعة . . » .

اندفعت تأكل فى شهية واضحة ، أما أنا فلم يكن لدىَّ أى رغبة للطعام كانت تأكل وتشرب دون أن تلتفت إلىّ ، بينما أشعلت سيجارة ، وأخذت أجذب أنفاسها متأملاً . . قالت فى دهشة :

- «لِمَ لا تأكل؟!» .

- «لا أريد . . » .

- «ربما قد أكلت فى الخارج . . » .

- «أبدًا . . » .

توقفت عن الأكل ونظرت إلىّ نظرات غاضبة ، وقالت :

- «هل أنت حزين؟!» .

- لا . . أنا خائف . . » .

- «لكن الرجال لا يخافون . . » .

- «الأمر ليس هينًا كما تتصورين . . » .

زمت شفتيها ، وهبت واقفة ، وقالت فى حزم :

- «أتريدنى أن أرحل؟» .

قلت فى انزعاج ، وقد شعرت فجأة أن وجودها ضرورى للغاية :

- «مستحيل . . » .

ضحكت فى سرور ، ثم أمسكت بنصف رغيف ووضعت فيه عدة قطع من اللحم المشوى ، وقالت فى إصرار :

- «فلنأكل إذن . . » .

ووجدتنى أتناول معها الطعام وأقبل على أكله دون أن أتفوه بكلمة ، أدرت مفتاح المذياع ، فانسابت منه أغنية بدوية لسميرة توفيق تمتمت مريم :

- «صوتها جميل . . » .

- «أتعرفينها . . » .

- «صوتها مميز وهى . . لكم يحلو لى أن أسمعها . . إنها تشجعنى على الرقص . . » .

***



١٠

وذُهلتُ إذ رأيت مريم تلفُّ شالاً على وسطها ثم ترقص، الغجريَة القديمة تثب فى مخيلتى. . الصحراء المترامية. . الخيام. . القهوة، الخيول والسيوف والنشامى على ظهور الخيل. . والجمال الوحشى الذى يسحق كل مقاومة ويدوس على كل منطق، وينطلق من قلب الطبيعة العذراء، التى لا تعرف الخوف ولا تعترف بالقيود، وأخيراً جلست تلهث، وضعت أمامها الملابس الجديدة لشد ما فرحت بها. . وكانت تقلبها بين يديها فى دهشة ومتعة، وتضعها على صدرها محاولة أن تتبين مدى موافقتها لها، ثم تقلبها فى سعادة، شعرت برغبة جارفة فى النوم، قلت لها:

- «مكانك فى الغرفة الداخلية وأنا هنا. . ».

- «حسنًا. . آن أن أذهب. . ».

لكنى بقيت أتقلب فى فراشى حتى الفجر، إننى متعب

فـالطريق من رأس الخيـمـة إلى دبى غير مـرصـوف، ممتلئ بالمطبـات والكثبـان الرمليـة وهروب مـريم أرهق رأسى طوال المسافة، وأنا فى سريرى لم أزل أفكر فى الغد، أهلوها بالتأكيد لن يكفوا عن البحث عنهـا، وأنا كيف أبقى هكذا مختبئًا فى هذا المكان، هذا وضع لا يليق، ولا يقره الدين، ولا يرضى به المجتمع، كيف أنظر إليها . . إننى أشعر بأنفاس الشياطين تفح فى جنبات المسكن الصغير، فكيف أنام؟

كلما أغمضت عينى أرى ومضات من نور مختلفة بكتل من الظلام ترتعش فى مـخـيلتى، آلام فى عـينى من الداخل، الصداع يكاد يحطم رأسى، ومنفضة السجائر قد امتلأت، وهواء الحجرة تلوث تمامًا بالدخـان حتى أكـاد أختنق . . يا إلهى . . النجدة . .

●●●

كنت أعلمها أصول الطهى بالطريقة التى تروق لى، وكانت تبدى نشاطًا ملحوظًا فى فهم كل شىء بسرعة خارقة، وكانت السعادة تلمع على وجهها كلما حققت قدراً من النجاح، واشتريت ثلاجة صغيرة وأطباقًا، وغسالة، كانت فرحة بهذه «اللعب» الجديدة المنزلية التى لم تتعود عليها قبل ذلك، وكانت تظن أنها لغز من الألغاز المحيرة، قالت ذات مساء:

- «هل أعجبتك؟».

- «أنت رائعة».

نظرت عبر النافذة، وهمست فى حزن:

- «ليتنى أبقى هكذا طول عمرى.. أغسل لك ملابسك وأعد لك طعامك وأنظف لك المسكن.. كنت أظن أننى لا أستطيع أن أحبس نفسى فى أى مسكن مهما كان، لكنى لم أشعر بأدنى ضيق من حياتى.. لا يهمنى الخارج.. عالمى كله فى هذا الحيز.. إنه كالجنة.. شىء آخر أشعر به الآن.. يحلو لى دائمًا أن أنتظرك.. أعرف يقينًا أنك ستعود، لكنى أخاف ألا تعود..».

وتنهدت فى ارتياح، ثم شردت بضع لحظات، وقالت فى شراسة:

- «إن من يفكر فى أخذى من هنا لن يكن مصيره سوى القتل..».

ضحكت وأنا أردد:

- «يا ساتر استر..».

- «هو ذاك.. أريد أن أكون على هواى».

- «وإذا لم تستطيعى قتله؟».

قالت دون تردد :

- «أقتل نفسى . . إذ لا قيمة لحياتى إذا خرجت من هنا» .

قلت وقد طرد لكلماتها :

- «ألا تحنين لأهلك؟» .

قالت :

- «أنت أهلى . .» .

نظرت إليها ، وقد تبللت عيناها :

- «إننى أحبك يا مريم . .» .

انحنت رأسها وأخذت تبكى ، اقتربت منها ، وبقيت ساكنًا كالصنم ، لا أدرى ماذا أفعل ، وما انتهت من بكائها حتى وجدتنى أربت على كتفها فى حنان ، وذهلت إذ رأيتها تبتعد عنى وتقول وهى تزحف من مكانها ، وتنظر إلىّ فى تحذير :

- «لا تلمسنى . . لست منهن . .» .

- «ما قصدت بك سوءًا . .» .

- «ليس معنا أحد . . لكن ما من قوة أن تقهرنى . .» .

- «أنت تسيئين الظن بى . .» .

وقفت ، وشردت إلى بعيد ، ثم قالت فى نبرات حانية :

- «أنت أغلى من عيونى . . » .

ثم استدارت فجأة، وألقت نفسها بين ذراعى وأخفت وجهها فى صدرى، واستسلمت تمامًا للمساتى، كانت تتشبث بى فى قوة، وبقيت هكذا فترة، ثم فكت ذراعيها وهرولت إلى حجرتها . . تذكرت أننا لم نتناول عشاءنا بعد وقررت أن أتركها وشأنها، وذهبت إلى المطبخ لأعد لنفسى «سندوتش» لكنى سمعت صوتها من الداخل .

- «ماذا تفعل هناك؟» .

- لا أستطيع أن أنام وأنا جائع . .

- «أنت تأكل هذه الأيام كثيرًا، وتنام كثيرًا . . » .

- «العمل مجهد» . .

- «حسنًا . . لسوف آتى لأساعدك . . » .

- «استريحى . . فالأمر هين» . .

ووجدتها تقف خلفى، وتضحك من قلبها ضحكات بريئة تتوهج فى سعادة ونحتنى جانبًا، وهى تقول :

- «لا بد أن أعد لك طبقًا من البيض» .

- «لا داعى لكل هذا» . .

السمن فوق النار يغلى، وللغليان لحن مميز، وهى من آن لآخر تتكلم، أعطنى هذا الطبق. . أين الملعقة؟ خذ هذه السمنة من هنا. . هات الملح من فوق الرف. . أنت تأكل كما يأكل ثلاثة رجال. . أين يذهب كل هذا الطعام؟! كانت تضحك وتتحرك هنا وهناك وترتطم بى مصادفة. . فيشتعل جسدى. . وهى تقهقه وترفع وجهها إلىّ فى سعادة. . قالت:

- «أليس لك أخت؟».

قلت فى شىء من الأسف:

- «تزوجت ثم ماتت فى ريعان شبابها. .».

- «مسكين. .».

- «وأبوك وأمك؟».

- «أبى اختاره الله إلى جواره. . وأمى تعيش هناك بعيداً هناك قرب الحدود مع العدو».

قالت فى صدق وتأثر:

- «ليتنى أراها، لماذا لم تحضرها معك؟».

- «لم أفكر فى شىء من هذا قبل ذلك. . إنها تأبى أن تغادر بيتنا القديم، بل رفضت أن أبنى لها بيتًا جديداً. .».

استدارت إلىّ، وتوقفت عن العمل لحظة، ثم تساءلت:

- «لماذا لم تتزوج حتى الآن؟».

- «كان عليّ أن أبنى مستقبلى أولاً . . ».

ابتسمت قائلة :

- «وما شأن الزواج بمستقبلك؟».

- «الزواج يحتاج إلى إعداد وترتيب واستقرار ومال . . وتفكير . . ».

همست فى شىء من النفور :

- «إنك تعقد الأمور . . نحن فى الجبل نتزوج عندما نريد ذلك . . ».

- «لكنكم تشترطون الصداق (المهر) . . ».

- «أجل . . ».

- «المال لا ينزل من السماء» . .

- «بل ينزل مع المطر . . وينمو مع الزرع ويمشى فى ركاب الإبل والشياه . . ».

- «الأمر بالنسبة لى يختلف يا مريم» . .

- «فى الجبل عندما نجوع نأكل . . كذلك عندما نشعر بالرغبة فى الزواج نتزوج».

- «ليس الموضوع بهذه البساطة» . .

- «متى تتزوج إذن؟» .

- «إنى جائع» . .

- «وأنا أيضًا جائعة» .

- «فلنأكل بسرعة، حان وقت النوم» . .

- «ليس لديك عمل غدًا . . ألست فى عطلة؟» .

إننى أحمل عبئًا من الرغبات الطاغية، أحاول أن أجابه جبلاً ضخمًا وأريد أن أدفعه إلى الوراء، مشهد مضحك لا شك فى ذلك، لن أستطيع زحزحة الجبل من مكانه، لكنى أقضى وقت فراغى فى المجابهة والدفع، فلا أكاد أتوقف ولا الجبل يتراجع . . ليكن فإننى أبرد طاقتى المجنونة فى هذه المحاولات اليائسة . . ذهب كل منا لينام فى حجرته، ولا أدرى كم مضى من وقت وأنا نائم، فقد سمعت صراخًا وعويلاً، فانطلقت جاريًا عبر الظلام، كنت أصطدم ببعض المقاعد، وعندما أضأت النور وجدتها منكفئة على سريرها تبكى بحرقة . .

- «ماذا جرى؟» .

- «كاد يقتلنى» . .

- «مَنْ؟».

- «خميس ولد عمى.. هاجمنى كالشيطان بخنجر مسموم.. ورأيت المطوع حسن بن محمد يلعب بالثعابين فى يده.. عبد الله هو الآخر، كان يقف متدلى الذراعين لا يفعل شيئًا.. أصبحت أخاف النوم والظلام، إنهم يطاردوننى».

بالطبع فهمت أنها تتحدث عن حلم مزعج، إن صراعها النفسى المخبوء يتفجر بكل ما يعتمل فى داخلها وتحاول هى الهرب منه، من العسير أن تنسلخ هكذا دفعة واحدة عن ماضيها فى الجبل وأهلها، إنها تكابر وتظهر عدم الاكتراث مع أنها تشقى وتتلظى بجحيم الصراع الذى يجرى فى كيانها مجرى الدم فى عروقها، إن تمردها لا يعنى انفصالها التام، أنا أعرف ذلك جيدًا هى لم تحسم أمرها تمامًا، أيمكن «لسندريلا» الجميلة أن تنسى ماضيها تمامًا، وتنخرط فى حياتها الجديدة؟!

***



هذا وهمٌ، كان يجب أن أفهم ذلك منذ البداية قلت محاولاً اختبارها:

- «فى إمكانى أن آخذك إلى هناك فى أى وقت تشائين..».

هبت من سريرها مذعورة:

- «ماذا؟ مستحيل..».

- «أظنك لن تبقى هنا للأبد..».

قالت فى إصرار:

- «بل سأبقى.. سأبقى.. حتى ولو قذفت بى إلى الشارع فسأعيش معك كخادمة.. وإذا رفضت فإنى سأتبعك كظلك، وأمشى وراءك أينما رحلت.. لن أفارقك..».

قلت:

- «أهذا هو قرارك النهائى؟».

- «قلت ذلك منذ أتيت إلى هنا. .».

- «فلتنامى إذن، ولا تحلمى مرة ثانية. .».

اضطجعت على سريرها، وابتسمت والدموع لم تزل عالقة بأهدابها، وقالت:

- «أتجيد استعمال السيف؟».

- «لماذا؟».

- «قد تحتاج إليه فى وقت من الأوقات. .».

- «لا أظن ذلك. .».

- «على الأقل للدفاع عنى. .».

ضحكت، قائلاً:

- «أنا طبيب ولست فارس قبيلة. .».

- «فلتكن الاثنين معًا. .».

- «إننى أجيد استعمال المسدس والمدفع. .».

وثبت كقطة وحشية. . ودست يدها فى كيس من القماش ثم أخرجت منه شيئًا، وضغطت بأصبعها، فلمع نصل الخنجر فى يدها، الحقيقة أننى أصبت ببعض الخوف، ونظرت إليها فى دهشة:

- «ما هذا؟».

- «في الجبل تكثر الأفاعي والوحوش . . ».

- «لكننا لسنا في الجبل يا مريم . . ».

- «ليس هناك ما يمنع مجيئها هنا . . ».

- «آن أن تنامي يا مريم . . ».

نظرت إليّ في شيء من الغيظ، ومضيت إلى حجرتي، ولكن النوم لم يقرب جفني بعد ذلك.

كنت أفكر كيف أتصرف لو فوجئت بأبيها أو أحد من قبيلتها، إن الاحتمال قائم فعلاً، بأي منطق أسمح لفتاة مثلها تبقى في منزلي، وكيف أواجه الشكوك والصعاب؟ إن الأمر سيتسع نطاقه وقد يصل إلى مسامع الرئاسة، أو حكام المدينة، وقد يرفع إلى القضاء فأقع في مأزق لا فكاك منه، يجب أن أعترف أن موقفي ضعيف، وأني أتصرف كصبي صغير، لماذا المواربة والخداع؟ إنني عاجز عن إخراجها، بل لا يمكنني الاستغناء عنها وذلك لأني أحبها، لكن أتصلح زوجة لي؟ الزواج يبدو هو الحل الوحيد لمثل هذه الورطة، وهو أمر منطقي وميسور لأني أريدها إلى جواري، لكن ماذا بعد أن ينطفئ الوهج، ويروى الظمأ، وتمر الشهور والشهور، ننجب الأطفال؟ أيمكن أن يستمر هذا الحب، وتمضي الحياة حسبما

نشتهى أم تتمزق العلاقة الحارة ويتمزق معها كيانى وأطفالى؟ شىء محير: كل ما أعرفه هو أن الأمر يجب أن يحسم على أى وجه، وأنه لا مجال للتردد والإطالة.. وليس هناك من قرار حكيم سوى أن أخبرها بأن تنصرف، أعرف أنى أحبها حبًا جارفًا، فلأسحق مشاعرى: من يدرى؟ قد أنساها بعد فترة، وينتهى كل شىء، أريد أن أكون حاسمًا وواضحًا هذه المرة ولن أخدعها، أأتخذها عشيقة ثم أقذف بها كالخرقة البالية وسط الشارع؟ هذا إجرام لا يقره دين ولا تعترف به إنسانية، فلأقسو قليلاً كى أحفظ لها حرمتها، وأجنبها المصير التعس، وأنا واثق أننى سأقاسى من جراء ذلك أكثر مما ستقاسى مريم المسكينة التى لا ذنب لها فى نشأتها وظروفها..

أصبح الصباح، كنت مكفهر الوجه على غير العادة، أدركت ذلك وأنا أحلق لحيتى، كانت تثرثر وتغنى، لكنى لم أحفل بها، حاولت أن أمضى فى طريق العنف حتى النهاية.. قلت لها ونحن نتساقى أقداح الشاى:

- «مريم كونى عاقلة.. يجب أن تعودى إلى أبيك..».

كنت جادًا أدركت هى ذلك على الفور، كانت ذكية شديدة الحساسية، شحب وجهها، قالت فى هدوء محاولة أن تحتفظ بكبريائها:

- «حسنًا . . لسوف أرحل . . » .

لم أرفع رأسى، سمعتها تتحرك فى جنبات الشقة، كانت تجمع حاجياتها فى سرعة وتوتر، خلعت كل ما أحضرته لها حتى الحذاء البلاستيك الأحمر، ووجدتها تتجه صوب الباب حاملة الكيس القماش الذى أتت به . . لا أدرى كيف جريت خلفها، وتصديت لها، ومنعتها من الخروج وأنا أقول فى بلاهة :

- «إننى أمزح . . عودى . . وشعرت . . ما أعجب قلبى . . شعرت براحة كبرى، وذابت كل أفكار الليل . . » .

ooo

طالت غيبة المطوع عن الحى، كما لم تظهر أى دلائل تشير إلى العثور على مريم، ورغم مرور أكثر من أسبوعين على حادث الاختفاء، إلا أن التوتر ظل جاثمًا على الجبل، سوء النية بقى جاثمًا فى النفوس، وأخذت النسوة ينسجن الأساطير، ويخترعن من الحكايات ما لا أساس لها من الصحة، وزعم أن جثة فتاة قد وجدت طافية قرب شاطئ رأس الخيمة، ولم يستدل على هويتها فأجريت لها مراسيم الدفن المعتادة، ومن قائل : إنها توجهت صوب «البحرين» حيث انضمت إلى حاشية بعض الشيوخ هناك، وآخرون قالوا : إن

أحد المسافرين رآها فى الكويت تركب سيارة فاخرة إلى جوار أحد التجار، وهناك من قال: إنها ركبت إحدى السفن المتجهة إلى الشاطئ الإيرانى للخليج، وكان أبوها المسكين يهرع إلى مصادر تلك الشائعات ويحاول التحرى جاهدًا، فيجد ذلك كله رجمًا بالغيب، ومجرد ثرثرة لا معنى لها، ولا طائل تحتها، وتوجه أبوها صوب مدينة رأس الخيمة، وذهب إلى المستشفى، فكم كانت خيبة أمله كبيرة عندما سأل عنى فقيل له: إن الطبيب نقل إلى «دبى»، لقد أتى ليستنير برأيى فى هذا الأمر الذى أقلقه وأحزنه، كانت فاتسالا تعرف على زيد زيدون، وعندما علمت بقصة اختفاء مريم، أخذت تستفسر عن سبب هروبها، واليوم الذى هربت فيه، عندئذ ثارت فى نفسها الشكوك، أيمكن أن يكون لى صلة بهذا الحادث؟ هذا ما كانت تفكر فيه فاتسالا، مجرد ارتياب لا أكثر ولا أقل، إذ ليس مصادفة أن تختفى فى اليوم الذى رحلت أنا فيه، وفاتسالا تحبنى حبًا عميقًا، وكانت تغار من أية أنثى تقترب منى، بل وتبدى حماقة وانزعاجًا ظاهرين فى كثير من الأحيان، وكانت نقمتها علىّ شديدة لصلتى بمريم أثناء تواجدها بالمستشفى، وأخذت شكوكها تربو وتتضخم، عندئذ اقتربت من على زيد زيدون، وقالت له:

- «لم لا تذهب إلى دبى وتسأل الطبيب عنها؟».

كان الرجل يريد أن يفعل أى شىء كى يجد ابنته، وكان على استعداد لأن يطرق أى باب، أن يذهب إلى أى إنسان، ومن ثم قرر أن يأتى إلى دبى فى اليوم التالى، لكنه عاد عصر ذلك اليوم الذى قابل فيه فاتسالا إلى الجبل كى يعد نفسه، وفوجئ فى الجبل بوجود المطوع حسن بن محمد، كان مكتئب الوجه، كسير القلب.

- «طالت غيبتك يا مطوع..».

- «الطريق طويل..».

- «هل اهتديت إلى شىء..».

- «إن من سار على الدرب وصل..».

- «عمان كلها دروب..».

- «سأسير فى كل اتجاه بحثًا عنها..».

- «إننى فأنت يا مطوع لم تعثر لها على أثر..».

- «إنى أشم رائحتها هناك فى دبى.. ولا بد أن أجدها..».

تنهد على زيد زيدون فى حسرة، وقال:

- «قالوا فى البحرين.. فى الكويت.. فى دبى.. فى قطر.. فى أبو ظبى.. الحقيقة ضائعة يا مطوع.. ومريم

أورثتنا العار والنكد- كثيراً ما أتصور نفسي قابضًا على معصمها وأنهال عليها طعنًا بالخنجر، إنني أعاني من الغيظ المكتوم وأكاد أنفجر . . » هز المطوع رأسه قائلاً:

- «من اعتصم بالصبر نجا . . تعلمت من الإبل أن أصبر على الظمأ، ودائمًا تنتهي رحلتي بالعثور على النبع . . عندئذ أشعر بحلاوة الماء وكأنه أشهى شيء في الدنيا . . ».

- «إنه الشرف يا مطوع، فكيف الصبر عليه؟».

- «أجل . . كيف الصبر عليه؟ لكن هناك وسيلة أخرى!!».

ضرب على زيد زيدون كفًا بكف، وقال:

- «لا حيلة . . ليتها ماتت . . ».

- «لا تقل هذا الكلام . . الرزق والأجل من أمر الله».

- «آمنت بالله . . ».

- «ستعود مريم يا على ذات مساء . . ».

- «سأسفك دمها . . ».

ضحك المطوع قائلاً:

- «لا . . بل ستدق الطبول، وتملأ الجبل بالأفراح، إنها ابنة

سيدنا؛ أعظم من أنجبت الشحوح من النساء.. إنها عقد الجواهر في جيد القبيلة..».

-«ليكن..».

استطرد المطوع قائلاً:

- «هي العبير الحلو في جنبات الأرض الخراب».

- «تلك التعسة..!».

- «وهي الزهرة الندية يا علي في بستان جفت أعواده..».

ثار علي قائلاً:

- «لا تقلب هذا الكلام.. إنني أكرهها.. أكرهها..».

ضحك المطوع:

- «بل أنت تحبها، تحبها، فلتصدق؛ لأن الصدق هو الإيمان الأكبر..».

أخذ علي يتمتم.. بذلت لها العطف، أعطيتها كل ما تريد.. أحطتها بالخدم.. لم أقسُ عليها، أو أشعرها بالحرمان، وحاولت أن أسترها وأبحث لها عن حياة تتناسب وقدرها وقدر أبيها.. لكنها كانت مغرورة ساذجة، أحبت تافهًا كعبد الله.. وتمردت على رجل أصيل كخميس.. وتجنت على رجل فاضل مثلك، لم يعجبها أحد في القبيلة،

كانت تنظر إلى السماء، وتعيش فى الأحلام، وتتوهم أشياء لا وجود لها، بل إنها تريد أشياء لا تعرفها. . زعمت أنها لا تريد الزواج، هل سمعت بامرأة تعيش بلا رجل؟ الرجل زينة المرأة، والمرأة زينة الرجل، برغم المنغصات التى تعترض حياتهما. . إننى أريد أن أعرف ماذا تريد!! قل لى هل أخطأت فى حقها؟ قال المطوع:

- «أنت أكثرت من تدليلها.».

- «التدليل لا يمنع البنت من التفكير فى الزواج..».

- «هذه مشكلة تحل مع الزمن..».

- «لكننى كنت أخاف الانحراف..».

عبث المطوع بلحيته، قائلاً:

- «دع الأمر لى.. إذا تزوجتها فستجد ابنتك ترفل فى السعادة التى ما حلمت بها قط..».

بسط على كفيه متحسراً، وقال:

- «وأين هى الآن؟ أنا أبوها.. أنا أمها.. أنا أخوها.. ترى كيف تأكل؟ وكيف تنام؟ وهل تعرضت لعبث ذئاب البشر؟ أصبح واضحًا أن خميس لا يعرف عن طريقها شيئًا، وأن عبد الله هو الآخر أحمق لا يدرى أين ذهبت.. وأنت يا

مطوع تلف وتدور حاملاً كتبك وأسفارك دون أن تستدل عليها . . هل ابتعلتها الأرض؟» .

قال المطوع في ثقة :

- «بل سأجدها بإذن الله ، لكل أجل كتاب . . » .

- «وأنا ذاهب إلى دبى غداً . . » .

- «لقد قدمت لتوى من هناك . . » .

- «هل سألت الطبيب؟» .

- «أى طبيب؟!» .

- «ذلك الذى كان يعالجها فى رأس الخيمة ، لقد ارتحل إلى دبى إنه يعرفها وهى تحتاج إليه فى أزمة الربو» .

•••

انتشر الليل وبسط أجنحته السوداء على الجبل . واسترخت الإبل والشياه ، وأوى الناس إلى مضاجعهم ، وقال المطوع :

- «حسن . . دع هذا الأمر لى . . سأرحل غداً أو بعد غد إلى دبى ، ولتبقَ أنت . . » .

- «أتعرف الطبيب جيداً . . » .

- «تمام المعرفة . . وهناك مظان أخرى سأبحث فيها ، إننى على وشك العثور عليها ، ولدىَّ معلومات قيمة فى هذا

الشأن . . فقد عرفت السيارة التى ركبت فيها ، والمال الذى كان معها . . عرفت الكثير . . وسأهتدى إليها بإذن الله . . » .

فوافق على زيد زيدون على ذلك ، كان يكره السفر فى هذه الأوقات ، ولا يريد أن يراه الناس يتنقل من مكان إلى مكان ، أصبحت نظراتهم إليه تزعجه ، كل نظرة يفسرها بطريقة تبعث على الأسى والألم فى نفسه ، لا شك أنهم يسخرون منه ، ويشتمون فيه ، وهو الذى لم يطأطىء رأسه لأحد ولم يرتكب عارًا ، ولم يقدم على فعل ينقص من قدره أو هيبته ، مريم هى التى جلبت له الذل والمهانة . . سامحها الله . . وقبيل الفجر انطلق المطوع حسن بن محمد عائدًا إلى دبى مرة أخرى ، لقد أدرك على التو قيمة الكلمات التى تكلم بها على زيد زيدون ، وهو كان يشعر دائمًا أنه يكرهنى . . يكرهنى كطبيب . . منذ أن رآنى ، وأنا الآخر لم أكن مرتاحًا لتصرفاته عندما ذهبت إلى الجبل . .

***

شعرت أن أحوالى على ما يرام ، أحداث الفترة السابقة تركت بصماتها على تصرفاتى ، مشكلة مريم المعقدة تؤرقنى وتورثنى حيرة قاتلة ، إن البيئة التى أعيش فيها بيئة لها تقاليدها ، وهذه التقاليد لها قوة القانون ، لم يفت ذلك زملائى فى المستشفى ، أكثر من واحد سألنى عن سر انعزالى وشرودى

وتناقص وزنى، وشحوب وجهى، لم يكن لدىَّ ما يمكننى أن أقوله، ليتنى أستطيع أن أخفف عن بعض ما بى، وأتدارس الأمر مع أحد أصدقائى، فلا مناص أن أطوى جوانحى على سرى، وأجتر وحدى آلامى وحيرتى، ووثبت إلى ذهنى فكرة.. لقد مر علىَّ عامان دون أن آخذ عطلتى المستحقة، لماذا لا أفكر فى السفر؟ آه.. وكيف أتصرف مع مريم؟ ومع ذلك فقد قررت السفر وتركت لها حرية التصرف فى العودة إلى أبيها أو الذهاب إلى أى مكان تراه حتى أعود.. إن السفر أصبح ضرورة ملحة بالنسبة لى وإلا انهارت أعصابى، هو علاج.. وتقدمت على الفور بطلب ونلت الموافقة.. وعدت إلى المسكن بعد انتهاء العمل وقد كنت منتدبًا للعمل بإمارة الشارقة لمدة ثلاثة أيام. كانت مريم منهمكة فى غسل الملابس، وعندما جلسنا بعد فترة على مائدة الطعام، قلت وأنا أتوجس خيفة:

- «سأسافر يامريم..».

- «إلى أين؟».

- «جولة فى الكويت.. أو سوريا أو الأردن.. أو فلسطين.. ولبنان.. حوالى شهرين أعود بعدهما.. ولن أستطيع الذهاب إلى العراق لأسباب سياسية..».

ooo



١٢

نظرت إلىَّ فى دهشة، ثم اكتسى وجهها بالفرحة الغامرة، وقالت:

- «لطالما كنت أحلم بذلك..».

هتفت وأنا لا أكاد أصدق:

- «ماذا؟».

فلم ترد على تساؤلاتى وانطلقت وثبًا إلى الداخل ثم عادت وفى يدها جواز سفر، قلت:

- «ما هذا؟».

- «جواز سفر.. أنا وأبى نملك جواز سفر أخذناه من حاكم رأس الخيمة..».

- «.. حاكم رأس الخيمة.. لكن لا يمكن أن تسافرى معى..».

اكفهر وجهها، وقالت محتدة :

- «كيف؟ . . » .

- «افهمى الأمر جيدًا يا مريم . . ما معنى أن آخذ بنت شيخ القبيلة وأسافر خارج الوطن؟ هذه مسئولية كبرى، بأى حق تسافرين معى . . ؟ لو طلبنى أبوك أمام القضاء لأدى ذلك إلى تعقيدات كثيرة . . » .

- «لا تذكر قبيلتى مرة ثانية . . أنا بالنسبة لهم مجرد فتاة انتهت . . ماتت . . الهرب لا يعنى سوى ذلك . . » .

واختطفت يدى دون أن أنتبه إلى ذلك وأخذت تقبلها، وتضرع إلىّ بعينيها الجميلتين، وترجونى فى إلحاح ألا أحرمها هذه الفرصة لأنها فرصة العمر، وتمتمت :

- «أريد أن أرى الدنيا . . » .

- «هذا أمر خطير . . » .

- «إن خارج هذه الدائرة عالم غريب . . لا تحرمنى هذه المتعة، وسأكون خادمتك أينما رحلت . . مجرد خادمة لا أكثر . . أتوسل إليك . . » .

ثم ضمت جواز سفرها إلى صدرها، وأخذت تتمايل وتدور فى أنحاء الشقة الصغيرة، وكأنها فى حلم بهيج، وتمتمت :

- «وهناك . . في العالم البعيد الجميل . . سأرى ما كنت أراه صوراً في السينما . . سأراه حقيقة وألمسه بيدى» .

ثم التفتت إلىّ قائلة :

- «أنت لا تدرى كم أحبك . . أنت أغلى إنسان عندى فى الوجود . . إنك فتحت عينى وأذنى على الدنيا الحقيقية . . الجبل كالسجن المخيف . . قلعة مرعبة تحميها الأكاذيب ويحرسها الكلاب ، وتطل عليها الشمس المحروقة ، والتقاليد الميتة . . اللعنة على كل الخائفين . . » .

ترددت أصداء كلماتها الأخيرة «اللعنة على كل الخائفين» . . ترددت أصداؤها فى رأسى . . الخوف مقبرة . . أو سيف بتّار يقطع أوصال السعادة ويسفك دمها . . ولماذا أخاف؟ فلأنطلق . . الخوف هو الذى جعل أسرتى تترك أموالها وممتلكاتها وتفر هاربة أمام الطغيان السياسى الحاقد . . والخوف أضاع منى فرصًا ذهبية كثيرة .

قلت لمريم :

- «لبنان عالم لا تستطيعين أن تعيشى فيه . . إنه ليس عالمك . . » .

بركت أمامى وهى تقول :

- «سأتفرج عليه . . لن ألمسه . . » .

- «وبعد أن تعودى يا مريم . . سيصبح الذهاب إلى جبل الشحوح مرة ثانية كالذهاب إلى ساحة الإعدام . . » .

هزت رأسها قائلة :

- «أعلم ذلك . . منذ أن أتيت إلى هنا ، وأنا لا أفكر فى العودة . . » .

- «وأبوك ، وخميس ، وعبد الله ، والمطوع . . والعجوز الذى فى بيتكم؟» .

أشاحت بوجهها فى ضيق قائلة :

- «لا تذكرهم بالله عليك . . » .

- «لا أتصور أنك يا مريم بنت أصيلة للجبل . . إنك تتصرفين بطريقة ما سمعت بها قط ، ولا يمكن أن تتفق مع طبيعة الجبل والقبيلة . . » .

دارت فى جنبات الغرفة كالحالمة ، كانت تنظر إلى السقف بعينين شاعرتين ، وتتنهد . . وقالت :

- «ربما تكون الشياطين قد لبست جسدى . . إن المطوع يفعل بنا الأفاعيل . . ويستخدم الجان . . أأقول لك حقيقة لم تسمع بها من قبل؟» .

قلت فى لهفة :

- «ماذا؟».

قالت محذرة وهى تلوح بسبابتها :

- «إن سمعها أبى منك ذات يوم لحطم جمجمتك . .» .

- «تكلمى . .» .

- «يزعم البعض فى الجبل أن أمى ماتت ميتة غير طبيعية . .» .

- «كيف؟» .

- «يقولون إن أبى قتلها!» .

- «كيف؟» .

- «لا أدرى سوى أنها كانت رائعة الجمال، وأنه كان يحبها . . وكانت أفراد القبيلة تركع تحت أقدامها، ولا يردون لها طلبًا . . الأمر غامض . . والسر فى بئر عميق، ولم أجرؤ فى يوم من الأيام أن أسأل أبى عنه . .» .

ثم هزت كتفيها قائلة :

- «من يدرى؟ربما يكون الأمر مجرد أكذوبة لا أصل لها . . والنساء الفاتنات عادة ينسج من حولهن الأساطير . .» .

ثم اقتربت منى، وقالت :

- «أحبك بشدة . . » .

قالت والدموع فى عينيها :

- «وأنت؟» .

- «إن حبى لك لا يوصف . . أنا حزين فقط لمسألة الهروب هذه، لكن أحبك أكثر من أى إنسان آخر فى الوجود . . كنت دائمًا أحلم بأن تكونى لى . . لأنى لمست فيك العفة والإباء» .

قالت وهى تجفف الدموع :

- «وهذا يخفف الكثير من آلامى . . » .

كلما فكرت فى هروبى الذى يؤرقنى وانطلقت بعد ساعة إلى شركة الطيران لحجز تذكرتين للسفر إلى لبنان مباشرة فى أقرب فرصة، وقررت الزواج منها .

***

فى الليلة التالية، قبيل السفر بيوم، قلت لها فى شرود :

- «أحب الغابات والجبال . . أحب الطبيعة . . أعيش بقلب شـاعـر . . وأنت يا مـريم أمنيـتى . . أنت الغـابات . . والخضرة . . والصفاء . . والطبيعة . . أنت القصيدة التى أحلم بالترنم بها من قديم . . » .

ضحكت من أعماقها وقالت :

- «لا أفهم كثيراً مما تقول، ولكن إحساسي يؤكد لي أن ذلك كله معناه أنك تحبني. . لكن حبك لن يرقى إلى مرتبة حبي الذي لا شبيه له في الوجود. . ».

عاد المطوع إلى دبي كان يجلس أمام المستشفى في انتظار الطبيب. . لكن اليوم مر دون أن يعثر له على أثر، وفي اليوم التالي هرول إلى أحد الأطباء يسأله عني، فأخبره الطبيب أنني لن أحضر إلى المستشفى إلا بعد يومين. . ولما سأل المطوع عن السبب كان الطبيب قد دلف إلى الداخل، وحاول المطوع أن يسأل عن عنواني فلم يرشده أحد وقبيل سفري بساعة واحدة تذكرت أن مفاتيح مكتبي يجب أن أسلمها لأمين المستشفى فأسرعت إلى هناك، وتوقف سائق التاكسي بعيداً عن المستشفى، ومعه الحقائب، ومريم تجلس في المقعد الخلفي للسيارة، وعدت بعد لحظات، وقلت للسائق الهندي وقد جلست إلى جواره:

- «انطلق بسرعة إلى المطار. . ».

تحركت السيارة ببطء في البداية، كي تمر بمنحنى في بداية الطريق، ولدى المنحنى صرخت مريم في رعب:

- «ها هو. . ».

- «مَنْ؟».

- «المطوع حسن بن محمد . . » .

هتفت قائلاً للسائق بالإنجليزية :

- «انطلق بسرعة . . بسرعة . . بسرعة . . » .

وسمعت المطوع يصيح بأعلى صوته فى دهشة ، ويجرى خلف السيارة :

- «مريم . . مريم» .

لكن نداءه ذاب فى ذيل الغبار المثار خلف السيارة ، وحجبته الضجة وتهنا فى زحام السيارات الرائحة والغادية ، كانت مريم ترتجف كفرخ صغير بلله المطر فى يوم بارد ، كنت أراها فى المرآة التى أمام السائق ، استدرت صوبها وقلت فى ثقة وقلبى يدق محاولاً التماسك :

- «لا تكترثى له . . لن يحلق بنا . . ولن يتبادر إلى ذهنه أننا فى الطريق إلى المطار . . » .

-«قد يسأل أحد زملائك فى المستشفى . . » .

- «لا أظن ، لا أظن ، فلن يخطر على باله أننا سنغادر البلاد . . وزملائى أنفسهم لا يعرفون موعد سفرى . . » .

تنهدت فى ارتياح ، لكنها كانت تنظر من آن لآخر عبر الزجاج الخلفى ، وأرى علامات الارتباك تبدو عليها كلما

حاولت سيارة أن تلحق بنا وتمرق من جوارنا، كانت تتلفت فى ذعر وتتمتم:

- «إنهم قساة لا يعرفون الرحمة.. أنا أعرفهم جيداً.. ولهذا هجرتهم ولن أعود، وإن عدت فسأقتل نفسى..».

قلت مؤكداً:

- «يا حبيبتى لا تنزعجى، فلم يبقَ على موعد قيام الطائرة سوى نصف ساعة، وهذا الوقت يكفى بالكاد لعمل إجراءات الوزن والدخول إلى الطائرة..».

وأوصيتها أن تتصرف بهدوء وروية فى المطار حتى لا تلفت نظر أحد، كما أكدت لها أن تضع خماراً سميكاً على وجهها، وقلت لها أن تتبعنى وتفعل مثلما أفعل، ولا داعى لأن تناقشنى فى شيء، وكأننا مسافران منفصلان ولن تستغرق هذه الأمور أكثر من ثلث ساعة، فإذا ما حلقت بنا الطائرة فى الجو، فلتتركى كل هذه القيود، وتجلسى إلى جوارى.. ويكون الأمر قد تم على خير ما يرام، وفى المطار حرصت مريم على أن تنفذ كل ما أمرتها به، ثم صعدنا إلى الطائرة، جلست هى إلى جوار النافذة، وجلست أنا بجوارها وعلى يسارى جلس مسافر ثالث يبدو أنه أوربى، كانت تنظر إلى سقف الطائرة، ثم تتابع المسافرين الداخلين وكأنها فى حلم، وتبتسم فى

سذاجة ، وسمعت صوت الميكروفون ينصح بعدم التدخين ، وربط الأحزمة ، فضحكت وحاولت أن تكتم ضحكاتها ، فمددت يدى وأخرجت لها حزام الأمان وشرحت لها كيف تستعمله وبعد أن أحكمت قفله ، حاولت أن تقوم فلم تستطع ، فهمست فى براءة :

- «إنه يخنقنى . . » .

- «دقائق ثم نفكه . . » .

- «لماذا هذا الحزام؟» .

وأخذت أشرح لها الفكرة ، وهى تستمع لى بكل جوارحها وتحركت الطائرة ، ثم حلقت فى الفضاء ونظرت مريم من النافذة وهتفت :

- «يا إلهى . . انظر . . نحن فى الهواء . . والمدينة كاللعب الصغيرة . . يا إلهى . . انظر . . نحن فوق البحر . . إننى خائفة ولا أعرف العوم . . لماذا لا تتجنب الطائرة طريق البحر . . » .

◎◎◎



١٣

كانت تتكلم بصوت يكاد يكون مرتفعًا، مما جعلنى أشعر ببعض الحرج، وخاصة بعد أن رأيت المسافر الذى يجلس أمامها يقظًا باسمًا، ثم ينظر إليها ويعود إلى جلسته، مما جعلنى ألفت نظرها بأن تخفض من صوتها، وتقلل من تعليقاتها، وبعد فترة أتت المضيفة ورطنت بكلمات أجنبية فهززت رأسى باسمًا، بينما هتفت بتبسم:

- «ماذا تقول هذه البنت؟».

- «تطلب منا أن نفك الأحزمة».

- «وماذا تفعل هنا؟».

- «مضيفة..».

- «تقصد أنها صاحبة الطائرة؟».

- «الطائرة تملكها شركة إنجليزية..».

هزت مريم رأسها دون أن تفهم ما تريد، ثم حاولت فك الحزام ففشلت فككته لها، فابتسمت وتنهدت فى ارتياح، ثم عبست فجأة، وقالت:

- «أيمكن للمطوع حسن بن محمد أن يلحق بنا..».

- «مستحيل.. حتى ولو كان له جناحان..».

- «أقصد فى لبنان..».

- «لبنان كبيرة..».

- «هذا الملعون يستخدم الجان..».

- «هراء.. الجان نفسه لن يعثر لنا على أثر..».

- «إنك تتكلم بثقة، وأنا أصدق كل ما تقوله..».

- «اطمئنى تمامًا يا مريم..».

صمتت برهة، ثم عادت تقول:

- «وبعد أن نعود إلى دبى، وسيكون الجبل ثائرًا ملتهبًا كالحريق.. وأبى لن يغفرها لى..».

- «لا تفكرى فى ذلك الآن..».

- «أليس فى هذا العالم الواسع مكان نهرب إليه فلا يأتى إلينا أحد من هذا الجبل؟».

قلت وأنا أتطلع عبر النافذة:

- «انظرى السحاب تحتنا . . » .

- «عجيب . . نحن فوق السحاب . . » .

- «أجل . . » .

- «لقد اقتربنا كثيراً من الله . . » .

- «الله فى كل مكان . . فى السماء . . فى الأرض . . » .

همهمت قائلة :

- «لكنهم فى جبل الشحوح لا يعرفونه جيداً . . » .

- «دعك من الجبل . . » .

تنهدت مرة أخرى ، وقالت :

- «أشعر بالسعادة وأنا أحلق فى الأعالى . . إننا نمر فوق قمم الجبال . . هى دوننا بكثير . . نكاد نلمس النجوم والقمر . . » ،

قلت وأنا أنظر إلى وجهها الفاتن المشرق :

- «أنت القمر . . » .

- «لا ترفع صوتك . . إننى أشعر بالخجل من هذا الكلام الحلو . . » .

وتضاحكنا ، ثم قالت :

- «إننى خائفة . . » .

- «لماذا؟» .

- «يبدو أن الطائرة متوقفة . . » .

- «مجرد وهم . . إنها تنطلق بسرعة رهيبة . . » .

استدارت صوبى قائلة :

- «ماذا لو تعطلت الطائرة فى السماء، ولا يوجد مكان نأوى إليه؟» .

قلت لها وأنا أضحك :

- «سوف نهبط إلى الأرض متعانقين . . » .

لكزتنى برسغها قائلة :

- «أنت تمزح . . هذا السؤال يحيرنى» .

- «حسنًا . . ستسقط الطائرة . . » .

- «ثم ماذا؟» .

- «ونموت . . » .

قالت فى غضب :

- «لكنى لا أريد أن أموت الآن . . » .

- «لماذا؟» .

- «لأنى أحب الحياة . . أحبك أنت» .

- «سيبقى الحب خالدًا . . » .

- «أنت تضحك علىّ ، لا قيمة للحب بعد أن نموت . . الحب مرتبط بالحياة . . لا حب فى الموت . . » .

كانت كلماتها حلوة فياضة بالقوة والأمل والذكاء والبساطة وعادت تلكزنى مرة ثانية :

- «لماذا تنظر للمضيفة هكذا؟» .

قلت معابثًا :

- «لأنها جميلة . . » .

ثم قالت ملوحة بسبابتها ، وعيناها تبرقان بريقًا ممتعًا :

- «حذار لو فكرت فى امرأة غيرى لخنقتك . . » .

أمسكت بيدها وضغطت عليها فى حنان ، وقلت :

- «أنت أميرتى الجميلة . . » .

وأقبلت المضيفة ومعها الطعام ، فتناولته منها ، ووضعته أمام مريم ثم تناولت طعامى أنا الآخر ، وبدأت فى الأكل بينما ظلت مريم لا تحرك ساكنًا .

- «ألا تأكلين؟» .

- «لا أحب هذا الطعام . . » .

وتناولت رغيفًا ، وأخذت تقضم منه فى حياء وأدركت على الفور أنها لم تتقن بعد استعمال الشوكة والسكين ، فأخذت أقطع لها الشرائح ثم أغرز فيها الشوكة وأناولها فى فمها لكنها أدارت وجهها بعيدًا ، وقالت فى حزم :

- «عيب . . ماذا يقول الناس؟» .

- «إنهم لا يكترثون بذلك . . » .

- «أستطيع أن أستعمل الشوكة الآن . . » .

لكنها لم تتناول إلا القليل وشربت الشاى ، ثم أخذت تتابعنى وأنا آكل ، وعادت للحديث عن الجبل مرة أخرى :

- «لا أدرى ماذا سيقول الناس عنا فى الجبل بعد أن يخبرهم المطوع بما رأى؟ إن أبى سيجن جنونه ، وخميس سيحمل غدارته ويأتى للبحث عنك فى دبى . . » .

قلت فى شىء من الضيق :

- «وعبد الله؟» .

لوت شفتها السفلى فى سخرية ، وقال :

- «إنه جبان لن يغادر الجبل . . » .

- «والمطوع؟» .

- «أخطرهم جميعًا. . وهو يكرهك بقدر ما يطمع فيّ. . لكن قامته لن تبلغ السحاب، ويده لن تطولنا في بيروت فليحترق بعذاب الغيرة والعجز. .».

ثم لصقت بي وهمست قائلة:

- «أنت أعظم رجل في الوجود. . وتستطيع أن تقهر كل رجال الجبل. .».

- «بالله عليك لا تذكري الجبل، فأنا في القتال لا أساوي درهمًا. .».

قالت غاضبة:

- «أنا لا أعرفك. . لا تقل هذا الكلام. .».

عندما حلقنا فوق بيروت، همست:

- «حمدًا لله على السلامة. .».

- «بيروت؟»

- «نعم. . انظري. .».

- «البحر. . والجبل. . والسماء الزرقاء. . والأشجار الخضراء. . النباتات الجميلة. .».

وهبطت الطائرة في أرض المطار بسلامة الله، ونزل الركاب. . قلت لها وأنا أتقدم صوب موظف الجوازات:

- «هنا حرية مطلقة. . لا حرج فى شىء. .».

قالت فى إصرار:

- «لا بد أن نعقد قراننا أول شىء. .».

- «ليس هنا فى المطار. .».

عندما ركبنا سيارة الأجرة قلت للسائق:

- «إلى الجبل. . سوق الغرب. .».

قالت فى احتجاج:

- «لماذا الجبل بالذات؟».

- «الجبل هنا يختلف عن الجبل هناك فى كل شىء. .».

- «حتى الجبال أنواع. .».

قالت وهى تتطلع عبر نافذة السيارة:

- «الجو هنا بارد رائع. . انظر. . يا للعار. . الرجل يطوق المرأة بذراعه فى الشارع كأنهم لا يفعلون شيئًا! ما هذا الذى أراه؟ يا للمصيبة!!».

كنت أضحك، والسائق هو الآخر يضحك ويقول:

- «يستمتعون بالدنيا. .».

وقصدت سمسارًا أعرفه من قديم، فأرشدنى إلى بيت صغير مناسب مفروش به حجرتان وصالة فأعجبت به مريم،

وبعد فترة قصيرة كنا وحيدين فى بيتنا الأنيق على الجبل، الهادئ الأخضر، والذى يطل على مناظر طبيعية رائعة، كانت مريم تجلس قبالتها وكأنها متصوف يبتهل إلى الله . .

كانت الليلة الأولى عامرة بالأفراح والأمل . . وفى اليوم التالى أتممنا كل شىء يتعلق بالزواج. وأصبحت مريم زوجة شرعية لى.

***

المطوع حسن بن محمد لم يكن يصدق عينيه، لكنه رآها وهى تجلس داخل السيارة. مريم بعينها، إنه يعرفها جيداً، ثم رأى الطبيب يجلس فى المقدمة . . أجل رآنى، والمطوع له عينان كعينى الصقر، وجرى خلفنا يصيح، ، ثم أخذ يدور كالمجنون فى أحد الميادين بعد أن فشل فى اللحاق بنا، ماذا يفعل، إنه لا يعرف لنا مسكنًا، فليعد إلى المستشفى لينتظرنى هناك، قرر أنه لن يغادر باب المستشفى لا ليلاً، ولا نهاراً، ولما طال به الانتظار ذهب إلى الأطباء، ثم إلى مدير المستشفى يسأل عنى، وكم كانت خيبة أمله كبيرة عندما علم أننى قمت بعطلة طويلة، سأقضيها فى ربوع لبنان، وسأتجول فى بعض البلاد العربية الأخرى، وشد الرحال فوراً إلى جبل الشحوح.

لقد كان الغيظ يأكل قلبه، والحقد يعمى بصيرته، ومن ثم

لم يقصد إلى شيخ القبيلة على زيد زيدون، بل وقف على مرتفع عال، وأخذ يصيح مناديًا على كل من فى الحى، فحضر كثير من الرّجال والأطفال والنسوة، ثم أعلن أمام الجميع أننى اختطفت مريم بعد أن هربت إلىّ وسافرت بها خارج البلاد، وشرح لهم أن الأمر الآن لم يعد يتعلق بمريم وأبيها وحدهما وإنما يتعلق بكرامة الشحوح جميعًا وبشرفهم ولا بد من عمل حاسم ينقذ سمعة الحى، ويرد الاعتبار إلى الجميع.

نظر عبد الله- وكان واقفًا- إلى خميس نظرة تحمل آلاف المعانى وتمتم:

- «كان الأجدر بك أن تأكل أذن الطبيب.. بل كبده..».

طأطأ خميس رأسه فى استحياء، وقال:

- «لم يكن أحد يتصور ذلك.. لقد فعلها ذلك الخبيث، ولا بد من العقاب الرادع وإن طال الزمن..».

وشعر عبد الله هو الآخر بحقد بالغ.. لقد أفلت الطائر الجميل من يده، وأصبح يشعر اليوم برغبة جارفة مجنونة تشده إلى مريم، أخذ يتصور اللحظات الجميلة التى قضاها معها أيام كان حبل الود متصلاً بينهما، يا له من تعس الحظ، لماذا لم يهتبل الفرصة، ويضحِّ بأعز ما يملك حتى يسعد معها، ويأخذها لنفسه؟ وبدا أن هذا الخبر الذى فجره المطوع بين أبناء الحى

كالقنبلة الشديدة الانفجار . . بدا هذا الخبر وكأنه قد محا كل العداوات القديمة، وجمع القلوب على معنى واحد. وهو لا بد من إعادة مريم ولا بد من الانتقام من الغريب الذى تجرأ وآواها لديه . . صوروا الأمر على أنه عملية خطف مدبرة، وجريمة متعمدة، وكان السؤال الحائر: إلى أى مدى وصلت علاقتها بى؟

وكان هناك شبه إجماع على أن العلاقة المتصورة بينى وبينها لا بد وأن تكون قد وصلت إلى مرحلة من السوء لا تسر أحدًا، وهمست امرأة عجوز بينها وبين نفسها: مريم فاجرة مثل أمها تمامًا.

وعاد المطوع يقول:

- «كيف نواجه القبائل المجاورة؟ لم يعد للحياة معنى وقد مرّغت مريم شرفنا فى الرغام . . ».

وزمجر الرجال، ومصمصت النسوة، وصمت الأطفال، لكن فتاة فى سن المراهقة، قالت لزميلة لها:

- «مريم فى منتهى الجرأة . . ترى ماذا تفعل الآن مع الطبيب؟ أنا أعرفها، إنها لا تعبأ بشىء، لا شك أنها تفعل ما يحلو لها».

لكزتها زميلتها فى حياء، وقالت:

- «اسكتى .. ألا تتـمنين أن تسـافـرى إلى تلك البـلاد البعيدة؟».

شهقت الفتاة الأولى قائلة :

- «يا للمصيبة !!».

ومع ذلك فقد نظرت إلى السماء الزرقاء الصافية وشردت بذهنها إلى بعيد، ثم تمطت، وخيالها توشيه الألوان الزاهية، العواصف الجامحة، وآمال المراهقات المحرومات، ثم عادت تقول :

- «مريم تستحق القتل».

همست الثانية :

- «لماذا؟».

- «أتفر مع رجل غريب، وتعيش معه تحت سقف واحد؟».

- «ربما تكون قد تزوجته ..».

- «بدون أمر أبيها؟».

- «أبوها يريد لها زوجًا لا تحبه ..».

- «أبوها على حق ..».

هزت كتفيها فى ضيق :

- «الآباء لا بد وأن يكونوا على حق ..».

- «بالطبع.. هذا هو الأدب والأخلاق..».

- «المطوع يكاد يجن.. لقد بَطُلَ سحره..».

- «وخميس وعبد الله يسود وجهيهما الشحوب..».

- «لقد ذهبت مريم ولن تعود..».

- «أتراها سعيدة الآن..».

- «هي لا تفكر إلا في نفسها، ولا تخاف من أحد، لقد دللها أبوها..».

استدارت الفتاة نحو زميلتها، وقالت:

- «إنه عار كبير..».

لكن الأخرى قالت:

- «ألا تفعلين مثلها لو أتيحت لك الفرصة؟».

قالت مستنكرة:

- «أنا.. أعوذ بالله.. هل جننت..».

- «لكن الطبيب فتى تعشقه النساء.. الفرق بينه وبين خميس شاسع كالفرق بين السماء والأرض..».

- «أجل.. لكن».

- «لكن ماذا؟ نحن لا نعرف الحقيقة..».

- «الأمر يحتاج إلى توضيح . .» .

- «كلنا خائفات . .» .

وفجأة حضر شيخ القبيلة «على زيد زيدون» بوجه مكفهر، كان المطوع يقف بين الناس يشرح لهم ما حدث . وصاح شيخ القبيلة فى غضب وتوتر :

- «أنت تتصرف يا مطوع كالصبية . .» .

- «لم أخطئ . .» .

- «أتفضحنى على ملأ من الناس؟» .

- «لقد أزعجنى ما حدث ففقدت السيطرة على أعصابى . .» .

- «كان أحرى بك أن تأتى إلىّ أولاً . .»

- «مريم ابنتنا جميعًا . . والكارثة تعم الجميع . .» .

- «لا تدافع عن خطأ جسيم وقعت فيه، لا فائدة من التبرير . .» .

أحنى المطوع رأسه، وتمتم :

- «آسف . . كان يجب أن أقصدك أولاً . . .» .

وصاح شيخ القبيلة فى غضب :

- «انصرفوا جميعًا إلى بيوتكم، وليبقَ هذا الأمر طى

الكتمان، حتى لا يشاع فى القبائل المجاورة. . . ودعونا نتصرف بهدوء وروية. . ».

انصرف الناس، وأقبل الليل بقمره الهادئ، فكسا الوجود بوشاح فضى قاتم، وجلس «على زيد زيدون» وحيدًا مسندًا جبهته على إبهام يده اليمنى، سابحًا فى أفكار شتى مزعجة وخيالات الدم تلعب برأسه، وتلهب جسده، لكن العجوز قدمت إليه، وقالت:

- «فيم تفكر؟».

- «فى العار. . ».

- «ربما يكون قد تزوجها على سنة الله ورسوله. . ».

- «ولماذا يتم ذلك فى الخفاء؟ إنه لو حدث يثير الشبهات، ويجعل الناس يتحدثون بما لا يليق . . ».

قالت العجوز فى احتجاج:

- «لقد رأيت الطبيب. . إنه أفضل ألف مرة من خميس والمطوع وعبد الله وأمثالهم. . والرجل طيب أصيل. ابن عرب. . ».

قال شيخ القبيلة:

- «لكنه غريب. . »

- «لا غريب سوى الشيطان . . » .

- «ولماذا لم يأتِ إلىّ؟!» .

- «ربما راوده الخوف . . » .

- «أنا أحبه . . » .

- «لكن الرجال هنا يكرهونه . . » .

ودخل المطوع، وبعد فترة صمت، قال :

- «لقد فكرت جيداً يا على . . لابد من إخبار الشرطة فى دبى . . لن تستطيع السفر إلى بيروت، ولبنان واسعة لن تستدل عليهما . . الشرطة هنا تستطيع أن تتخذ الإجراءات اللازمة لرد ابنتك إليك . . » .

قال شيخ القبيلة :

- «إخبار الشرطة يشيع النبأ، ويجلب المزيد من العار، ثم ماذا يكون الموقف لو أبرز لهم الطبيب وثيقة زواج رسمية؟» .

قال المطوع فى غيظ :

- «زواج؟ هذه كارثة . . » .

- «حسنًا . . فلنفكر بهدوء، ولا تقدم على أى تصرف دون أخذ رأيى . . » .



كانت مريم تقضى أيامها، وكأنها فى حلم رائع جميل، طرحت وراءها نوازع الخوف، وهواجس التردد أصبحت وكأن الحب الذى تنعم فى ظلاله حصن حصين. . وكان قلب زوجها أثمن ما تملك، وأضفى الزواج على علاقتنا معًا سمة الشرعية والاطمئنان، ولم يعد الوضع يبعث على القلق أو الضيق، وأخذت تنطلق معى فى جميع الأنحاء، يوم فى «بعلبك» وآخر عند منابع نهر الليطانى حيث نجلس فى كوخ صغير، نشوى اللحم، ونأكل ونشرب فى شهية وسعادة، وكانت تقبل على الفواكه الطازجة، وتجرى وتلعب فى انطلاق، ثم نذهب إلى «سير» ونصعد الجبل حيث الجو شديد البرودة أو نميل على «زحلة» ونجلس فى الكازينوهات الجميلة ذات الألوان، ونأخذ الصور التذكارية، وأخذت تألف الجو رويدًا رويدًا، واستطاعت بمساعدة بعض السيدات اللاتى كنا نلتقى بهن أن تتدرب على استعمال أدوات التجميل، وطريقة

تصفيف الشعر، كنت أريدها كما هى دون أن تتناول جمالها بالصنعة، لكنها كانت تتلهف على كل جديد، فتركت لها الحرية كى تمارس التجربة، بل واشتريت لها الكثير من الملابس الحديثة، وقد استغرقت بعض الوقت حتى تعودت عليها، وكانت تحافظ على ملابسها الحديثة أثناء وجودنا بالمنزل ولا تخلعها سعيدة بها، مما كان يؤثر على انطلاقتنا، وأحيانًا تبدو لها هذه الأشياء كلعبة جميلة أمسكت بها يد طفل ويأبى التخلى عنها، ويضحى بكل شىء فى سبيلها، لا أنكر أننى قضيت فى تلك الفترة أجمل أيام حياتى على الإطلاق، ولا أنكر أيضًا أننى أحيانًا كنت أفكر فى المستقبل..

إننى لا أستطيع أن أعادى قبيلة كبيرة كقبيلة «على زيد زيدون»، ولا يمكن أن أتحدى التقاليد لعريقة التى تعيش القبيلة تحت عبئها لسنين، بل لقرون طويلة، وإذا نما الأمر إلى مسامع رئاستى فإنها قطعًا ستثور، لقد أتيت لكى أعمل كطبيب ولم آتِ لأثير الزوابع، وأسىء -حسب ظنهم- للمجتمع الذى أسعى لخدمته، وسيستقبل زملائى الأمر أيضًا بكثير من التعليقات المرة والنكات الساخرة أنا أعرفهم جيدًا، وسيكون زواجى مادة غنية للتسلية والهزاء، ومع كل ذلك فأنا أحاول أن أهرب من هذه الأفكار أو بمعنى آخر أؤجل هذه

الهموم حتى يحين موعدها «غداً يظهر الغيب، واليوم لى» . .
هكذا يقول الشاعر العظيم عمر الخيام.

تمطت مريم ذات أصيل، وهى ترمق الشمس الغربة من فوق قمة الجبل، وكانت ترتدى فستاناً اختلطت فيه الألوان الحمراء والسوداء، ثم قالت:

- «يا لها من أيام حلوة . .».

قالت:

- «لو مت بعد ذلك، لما أسفت . . لقد نلت كل ما تشتهيه نفسى . . لكنى فى الحقيقة أود أن أعيش . . أعيش للأبد . . دون أن يتقدم بى العمر . .».

ثم استدارت إلىّ قائلة:

-«هل يمكن أن يمتد حبنا هكذا فى الجنة .».

- «فى الجنة يا مريم، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . .».

- «يا إلهى . . لسوف نسعد أكثر، ففيم الخوف إذن؟».

- «إنها طبيعة الحياة يا مريم».

- «الناس يفسدون كل شىء بخوفهم . .».

ضممتها إلى صدرى قائلاً:

- «آه يا فيلسوفتى الغالية..».

- «لا أعرف الفلسفة .. ولكنى أقول ما أشعر به..».

- «ذلك عندما تضمنى إلى صدرك، ذلك أثمن شىء فى الوجود..».

نفرت منى وهتفت قائلة:

- «عدنى بأننا سنبقى هكذا حتى الموت..».

- «أعدك يا مريم..».

ابتسمت، وهامت بنظراتها الفياضة بالحب والحياة فى العالم المسحور من حولنا، وأخذت تغنى، ثم اختطفت واحدة من التفاحات الموضوعة على السور فى طبق بلورى وأخذت تأكل منها، ثم تقربها من فمى لأقضم أنا الآخر، كنت ألبس «الروب» لاتقاء البرد، واضعًا يدى فى الجيوب ثم أشعلت سيجارة، وأخذت أنفث دخانها فى سعادة، وشردت بضع دقائق، ودخلت هى ثم خرجت ووجدتنى أقول:

- «لقد فكرت يا مريم، وقررت شيئًا سوف يثلج صدرك تمامًا، وسأحمى سعادتنا من العواصف..»

قلت متلهفًا:

- «سوف أرسل إلى أبيك خطابًا أضمنه كل شيء . . أعنى أنى سأخبره بأننا قد تزوجنا على سنة الله ورسوله، وسأرسل له نسخة من وثيقة الزواج . . ».

صمتت برهة وهى تفكر، ثم ألقت بنفسها على صدرى، وقالت :

- «عظيم . . ».

- «ألن يغضب . . ».

- «على العكس تمامًا . . سوف تزيل عنه الكثير من الهواجس والهموم، وسيواجه الحاقدين بدليل الشرف والعفاف، ولن يجرؤ أحد بعد ذلك على اتهامى أمامه . . ».

ثم قالت فى تمعن :

- «لكن لا تنسَ أن الأمر تم دون أخذ رأيه . . ».

- «أعرف . . لكنه أفضل بكثيرمن أى وضع آخر . . ».

واختطفت تفاحة أخرى، وقضمتها فى حماس، وقالت :

- «أبى ليس جامدًا كما نتصور . . الجميع يعرفون عنه حسن الرأى والروية . . أليس شيخًا للقبيلة؟».

ثم نظرت إلىّ بعينين أعنف ما يكون للحب . .

- «أنت تجعليننى أشعر بالغيرة منه».

قرصتنى فى كتفى قائلة :

- «الحب أنواع . . » .

شعرت بارتياح بالغ ، ولأول مرة أحس أن الأمر بسيط غاية البساطة ، وأنه لا يخرج عن كونه عملاً عاديًا ، مجرد اثنين تحابا فتزوجا ، ومريم ليست قاصرًا ، والوضع الآن أفضل من أى وضع آخر لم يتوجه الزواج ، ثم قلت :

- «أتعلمين يا مريم أننى فكرت فى ترك عملى» .

هتفت فى رعب :

- «يا للكارثة ! ! كيف تعيش ؟» .

- «لن أعيش بدون عمل طبعًا . . » .

- «لا أفهمك . . » .

- «فكرت أن نذهب للعمل فى السعودية أو أى بلد آخر . . » .

- «لكن . . » .

قاطعتها قائلاً :

- «رجل مثلى بلا وطن يستوى عنده العمل فى الشرق أو الغرب . . أنا مجرد لاجئ . . أتعرفين ؟» .

قالت دون اقتناع :

- «المهم أن نكون معًا ، وأن نجد لقمة العيش . . » .

- «هذا صحيح . . » .

- «انطلق إلى أى مكان . . فأنا معك . . أى أرض تستقر فيها فهى أرضى . . خض البحار . . واصعد الجبال واعبر الصحارى . . شرق وغرب أينما شئت . . فأنا جوارك يا نور عينى . . » .

قلت وروعة الأصيل تسكر خيالى :

- «معنا الحب . . فلن يخذلنا الله» .

- «لم أعد أكره أحدًا يا حبيبى . . » .

ولا أدرى لماذا قلت هكذا فجأة :

- «وعبد الله ؟» .

بان الضيق فى عينيها ، وهى تعرف أننى على علم بعلاقتها القديمة معه ، ولا شك أنها تتذكر يوم أن هربت من المستشفى وذهبت معه إلى السينما قالت :

- «لم يكن حبًا . . كان وهمًا . . » .

- «لكنك كنت تريدين الزواج منه . . » .

خفت أن تنفجر باكية، لكنها قالت متماسكة:

- «إنه أتفه من أن تفكر فيه..».

- «لكنك تمسكت به زمنًا..».

- «ذلك زمن الطفولة.. لم تكن أنت قدمت بعد..».

قلت فى شىء من الضيق:

- «مجرد عثرات فى الطريق..».

استبد بها الغضب وهتفت:

- «لم أعثر -لم أعطه شيئًا. كان أداة من أدوات التمرد ضد إرادة والدى.. كان الوسيلة التى أرفض بها القهر.. وحقيقة لم يكن هناك أفضل منه آنذاك فى تصورى..».

وأقبلت نحوى، وأحاطت عنقى بذراعها، ثم انتزعت السيجارة من بين شفتى ورمتها بعيدًا، وقالت:

- «لم يكن البدر قد أشرق فى ليل حياتى..».

ولصقت خدها بخدى، ثم همست فى أذنى قائلة:

- «ألا تشعر بى؟».

***

- «هذا عار لا يمحوه إلا الدم..».

كلمات خطرة أخذ يرددها المطوع حسن بن محمد ، ويسكنها في أذن خميس ، ويغرى بها عبد الله ، وينشرها في رجال القبيلة ونسائها . . لكن ما السبب الذى جعله يقول هذه الكلمات؟ لقد حدث أمر مهم .

أرسلت خطابًا إلى على زيد زيدون شيخ الشحوح عن طريق أحد الأصدقاء المخلصين ، وتضمن الخطاب أننى قد تزوجت ابنته مريم على سنة الله ورسوله ، وأرسلت إليه صورة طبق الأصل من وثيقة الزواج الشرعية .

كنت أعلم أنه ليس هناك حل غير ذلك ، وكانت نقطة الضعف الوحيدة فى موقفى هو أنى تزوجت دون استئذان شيخ القبيلة ، وحضوره مراسم الزواج بنفسه ، واعترفت له فى خطابى بهذا الخطأ ، وقلت منهيًا خطابى :

«لكنى على يقين بأنك سوف تقدر الظروف يا شيخ على ، وتغفر لنا هذه الهنات ، وتبارك زواجنا الشرعى وسأدفع الصداق الذى تريد ، وأن زواجنا الذى تم على سنة الله ورسوله ، لهو أمر يثلج القلب ويرد الاعتبار ، ويخرس ألسنة الفتنة ، ويكفى أن نكون أنا ومريم نعيش فى سعادة كبرى ، ولا ينقصنا سوى رضاك علينا» .

ودهش على زيد زيدون لقراءة الخطاب . .

كان سعيدًا وكان حزينًا . .

أيسخط أم يرضى؟ أيعلن الأمر أم يخفيه؟

القصة منذ بدايتها محيرة ومثيرة . . هروب . . بحث . . ابنة شيخ القبيلة . . لغط كثير . . زواج . . سفر إلى الخارج . وشايات . . كل هذه الأشياء تشكل حدثًا مروعًا يبعث على البلبلة والضيق، ويوحى بأمور غير طبيعية لا تتفق وتقاليد القبيلة، ولا تنسجم مع وضع شيخها ومركزه الكبير .

كنت قد أرفقت بخطابى بعض الصور الفوتوغرافية لى ولمريم فى أماكن شتى .

تناول على زيد زيدون هذه الصورة وأخذ يتفحصها وقلبه يدق . . ووجهه يحتقن بالدم، الحورية الجميلة فى ثيابها الملونة تبدو وكأنها هبطت من الجنة، وليست هى مريم التى يعرفها، وأنا تحت نظراته أبدو سمحًا طيبًا لا مجال للعيوب الظاهرية فىّ .

وأطال الرجل النظر فى الصور . . ثم ابتسم . . ثم ضحك . . مريم أصبحت عروسًا . . تزوجت طبيبًا . . وشقت عصا الطاعة . . الفرق شاسع . . ثم صورة عبد الله . . المقارنة مضحكة . . وأخيرًا صورة المطوع حسن بن عبد الله غير معقول . . أكانت ابنتى على حق حين رفضت، وحين

اختارت؟ ثم أليس لها الحق فى أن ترفض وأن تختار؟ أهى على صواب أو سقطت فى خطأ بالغ؟ أعتقد أنها لو أباحت لى بسرها منذ البداية لربما حبذت رأيها ووافقت على تزويجها من الطبيب . . إنها أهل لرجل عظيم . . ما كان يجب أن تتزوج إلا شيخًا من عظماء الشيوخ، أو فتى من ذوى المراكز العالية . . هذا أمر أؤمن به أعمق الإيمان، أكاد أقول إننى أشعر بالسعادة، وإن ابنتى أصابت فى تصرفها واختيارها لولا أنها أبرمت الزواج دون استشارتى .

وعلى الرغم من صلابة على وتشبثه بالعرف والتقاليد إلا أنه واجه الواقع بعقل متفتح، البنت تزوجت . . وهى ليست قاصراً، فماذا أمامى أن أفعل؟ هل أفصل بينها وبين زوجها، ذلك تصرف مضحك، هل أقتلها؟ قلبى لا يطاوعنى . هل أقرر الأمر الواقع وأباركه؟ إننى أشعر حيال ذلك ببعض المرارة والضيق .

وتنهد على فى شىء من الحسرة، ثم توجه إلى صاحبى قائلاً: سوف أرد على خطابه فى أقرب وقت . .

عاد على إلى الجبل، الأصيل يزهو على القمم، والجو يميل إلى الحرارة، وبعض الزروع الخضراء تتناثر هنا وهناك، كان المطر فى آخر الموسم غير قليل . . والشياه والماعز والإبل تنطلق

فى مسرح، والصبية يلعبون حفاة الأقدام.. والمطوع واقف عند مدخل الحى يرمق الطريق بعينى صقر..

- «ها قد عدت أخيراً يا على..».

لم يرد ومضى فى طريقه ممتلئ الرأس بالأفكار المتزاحمة، وتمتم المطوع:

- «لماذا لا تتكلم؟».

قال على وهو يرمق النخيل المخضرة:

- «عندما ينضج الثمر ولا نعجل بجنيه يتساقط..».

- «هذا كان رأيى دائماً.. قلت لك زوجها لى..».

نظر إلىّ المطوع نظرات ذات معنى، وقال:

- «لقد تزوجت مريم..».

- «كيف؟».

- «فاز بها الطبيب».

قال المطوع وقد اكفهر وجهه:

- «هذا عار لا يمحوه إلا الدم..»

طأطأ على رأسه قائلاً:

- «أحيانًا لا يمحو الدم شيئًا، بل لا يكون سوى حماقة ومزيد من القذارة..».

- «هذا منطق تأنف منه القبيلة..».

- «أنت رجل دين، والبنت تزوجت على سنة الله ورسوله..».

- «إنها تخدعك..».

أبرز على وثيقة الزواج قائلاً: «تلك هى الوثيقة..».

قال حسن وهو يتفحص الوثيقة، وكان الخبث واضحًا فى نبراته:

- «وماذا حدث قبل الوثيقة..».

صاح الشيخ على فى حدة:

- «أقصر يا حسن.. ولا تتهمنى فى شرفى..».

قال المطوع ساخراً:

- «أى شرف، وقد تزوجت دون مشورتك، بعد أن هربت من بيتك، وجرت وراء الغريب!! أنسيت أنك وعدتنى بالزواج منها؟».

- «كان يجب أن نؤمن بأنها إنسانة ولها رأيها..».

- «هذا كلام جديد لم نألفه . . ».

- «الدين يقول ذلك . . ».

زمجر حسن فى غيظ :

- «لا تتكلموا فى الدين، إنكم تحكمونه فى الوقت أو الموقف الذى يروق لكم . . الدين هو ما أقوله أنا . . ».

كظم على غيظه قائلاً :

- «وماذا تقول أنت؟».

- «أقول إنه عار لا يمحوه إلا الدم . . ».

- «ليس هذا منطق الدين، لكنه منطق الحقد . . »

- «إنى أعترض . . ».

- «الأمر يخصنى ويخص ابنتى . . ».

- «لكنك شيخنا . . شيخ القبيلة . . نحن وحدة واحدة . . ».

- «الزواج فى القبيلة رغبة حرة . . ».

- «هل هذا إعلان جديد؟».

- «هو الواقع . . ».

- «أنت تستسلم للعزيمة . . ».

- «إن ما أفعله هو عين الصواب . . » .

- «إنك تعالج أخطر مشكلة بالاستسلام لها . . » .

- «انتهى ، ولسوف أستقبل ابنتى هى وزوجها هنا فى الجبل وسنقيم الأفراح أسبوعًا كاملاً . . وسأدعو القاصى والدانى ، فلم يسبق أن تزوجت امرأة من الشحوح طبيبًا غريبًا . . هذا فخر للقبيلة وأنا سيد القبيلة . . وأنا راضٍ عما تم بكل ملابساته . . ولن يستطيع كائن ما كان أن يقنعنى بسفك دم مريم . . » .

نظر إليه حسن نظرة قاسية ، وقال :

- «كنت فى مطلع شبابك أكثر غيرة وشجاعة . . » .

أدرك على زيد زيدون أن المطوع يلمح إلى قتل أم مريم منذ سنوات بسبب سلوكها ، ففار الدم فى شرايينه ، وصرخ :

- «انصرف أيها المطوع . . انصرف وإلا سفكت دمك أنت ! ! » ، واستدار المطوع منصرفًا ، وهو يتمتم :

- «هذا يوم له ما بعده . . » .

●●●



١٥

رغم التزام القبيلة بالتقاليد القديمة، وتميز أداة الحكم فيها بالصرامة والقوة، إلا أن هناك جانبًا مهمًا لا يمكن إنكاره، وهو أن أى فرد فيها يستطيع أن يقابل شيخها، وأن يخاطبه باسمه المجرد، وأن يبدى رأيه فى أى مشكلة عارضة بحرية تامة دون تحرج، ومع ذلك فإن قرارًا ما عندما يصدر تكف الألسنة عن النقاش ويصمت الخلاف أو هذا ما يجب أن يكون وقد لا يقبل الأفراد ذلك القرار إلا أنهم غالبًا ما يرضخون له، وربما يتحول رضوخهم المبدئى إلى ثورة وتدبير فيما بعد، وهذا نادرًا ما يحدث، وقد يكون رأى شيخ القبيلة بين الخطأ إلا أنه يمضى فيه ولا يتردد ويعتبر التراجع ضربًا من الهوان والضعف لا يليق به.

وقد انتشر نبأ زواج مريم فى أنحاء الحى، ولم يحجم أحد من الواعين عن الإدلاء فيه بدلوه.. وفى اليوم التالى-يوم الجمعة- صعد المطوع حسن بن محمد المنبر، ولم يستحضر معه فى هذه المرة الأوراق الصفراء القديمة أو المخطوطات

البالية، التى تعود الناس رؤيتها فى يديه كل أسبوع، ولكنه أحضر كراسًا صغيرًا يبدو أن كلماته قد كتبت حديثًا، ولم تكن الخطبة مرتبطة بمناسبة دينية كما كان يحدث دائمًا، بل كانت نسقًا جديدًا تمامًا، إذ تناول الحدث المهم الذى يشغل أذهان الناس، تكلم المطوع عن هذا الزمان وفساده، والظواهر الخطيرة التى انتشرت فى كل مكان بالجبل، مثل تسلل الراديو إلى الجبل وهو أداة إفساد بما فيه من أغان وأنغام وأصوات نسائية، وعن الصور الخليعة التى تحملها بعض المطبوعات الحديثة، وعن بعض الشباب الذين يتسللون خفية إلى دار السينما فى رأس الخيمة، ثم تحدث الخطيب عن علامات الساعة، وعن البلاء الوشيك الوقوع.

وعن الجيل المتمرد الذى يعصى الوالدين، ولا يراعى أوامر علماء الدين، ولا يتبع سنة رسول الله، ثم تكلم بحماس واضح عن فساد الحكام والأمراء والملوك، مؤكدًا أن تأثير الحاكم قد يكون أقوى من تأثير المبادئ وفساد الناس، ثم انتفض المطوع صارخًا من فوق المنبر، وقال:

- «إننى أحذر شيخ القبيلة من بلاء متوقع وسخط نازل ما لم يتدارك الأمر، ويعصم الناس من الفتنة، وإلا شق نساؤنا عصا الطاعة، وجرين وراء الرجال دون حياء أو خجل،

وأصبحنا مضرب الأمثال فى الضعة والخور بين القبائل العربية المجاورة. . وقد أعذر من أنذر. . ».

وساد الهرج والمرج داخل المسجد الصغير، وشعر على زيد زيدون بضيق وكرب شديدين، لكنه احترم المسجد، وأدى الصلاة ثم وقف وسط المسجد، وأمر الناس بالبقاء فى أماكنهم، وقال متماسكًا:

- «. . لست من علماء الدين، ولكنى أب للجميع، ولن أفتى فيما لا أعلم، وكنت أتمنى ألا يخرج هذا الأمر عن دائرته الصغيرة. . وقد سألت أحد العلماء الكبار فى رأس الخيمة عن قول الشرع فيما حدث. . فأكد لى أن للفتاة الحق فى إبداء رأيها عند اختيار زوجها، وروى لى قصة عن امرأة تسمى «بريرة» على عهد رسول الله أراد لها الرسول أن تتزوج من رجل يحبها لكنها لا تحبه، ورفضت الزواج، فأقر الرسول ﷺ رغبتها فى ذلك. . وقال لى العالم الكبير، وهو موفد من الأزهر الشريف: إن علماء الإسلام مجمعون على إعطاء البنت البالغة حرية الاختيار. . ».

انتفض المطوع كمن لدغته حية وهتف:

- «لا تتكلم فى الدين يا على. . ».

- «إننى أنقل رأى عالم لا رأيى أنا. . ».

- «إن تقاليدنا لا تخرج عن قواعد ديننا يا على . . » .

- «لا . . إن هناك أموراً كثيرة نمارسها ولكنها تخالف الدين . . » .

- «إنها الفتنة بعينها يا على . . » .

- «أنت الذى تثيرها . . » .

- «أنا أقول الحق ، والناس يفهمون . . » .

ساد اللغط مرة ثانية ، وقال شيخ القبيلة :

- «لن أسمح بالتمادى فى الفوضى . . » .

- «لن تستطيع أن تمنعنى من قول الحق . . » .

- «تتكلم كثيراً عن الحق ولا تفهمه . . » .

- «أنا معترض على كلامك . . إنك تهيننى . . » .

وسادت لحظة صمت متوترة ، وتقدم منه على زيد زيدون وقال فى قوة وإصرار :

- «لا بد أن ترحل عن هذه الديار يا حسن بن محمد . . » .

- «هذه أرضى . . » .

- «أنت تحرق أمنها . . » .

- «ليس لك فيها أكثر مما لى . . » .

- «هذا حكم الله . . وقد أمرت بنفيك اتقاء للفتنة، ولأنك تعديت حقوقك . . فلتأخذ نساءك وأولادك ولترحل . . » .

ساد الصمت من جديد، نظر المطوع إلى الناس، وكأنه يطلب الحماية والتأييد، لم يتحرك أحد، هناك من يؤمنون به ويثقون فيه، لكن القضية المطروحة حساسة، ومنطق شيخ القبيلة قوى مقنع، والناس يعرفون أنه كان يطمع فى مريم، وهم يوجسون خيفة من ترك المطوع لهم، ويعتبرون ذلك بداية شر، ذلك وهمٌ قديم متأصل فى سلوكهم وفكرهم . . أما وقد حدث الصدام بين المطوع والشيخ، وقد كانا لسنوات طويلة صديقين متفقين فى الرأى فلا بد أن يختار الناس، الحاكم أو المطوع، وهذا اختيار صعب، الحاكم هو السلطة الدنيوية التى بدونها لا يستقيم أحوالهم، والمطوع هو السلطة الدينية التى بدونها لا يستقيم شأن الدنيا والآخرة، وأدرك على زيد زيدون الأمر، فقال:

- «أنت يا حسن لست الدين . . ولست الممثل الوحيد له . . فى الجبل وخارج الجبل عشرات من العلماء الأتقياء . . وسترحل عن الجبل، وسيأتى غيرك من الشحوح أنفسهم . . سيظل أمر الدين والدنيا على خير حال . . ولن نفرط فى حق من حقوق الله . . فلتنصرفوا جميعًا . . وقد أصدرت أمرى: فليأو كل واحد إلى مسكنه . . » .

وذهب جماعة من «المطرزية»- حرس الشيخ- وحثوا المطوع على الرحيل وسرعان ما أعد إبله وشاءه، وجمع أهله وهمٍّ بالرحيل، وهو يقول:

- «الويل لكم يا أبناء الشحوح . . ».

رد عليه أحد الحاضرين القلائل:

- «هل هناك ويل غير الذى نعيش فيه؟».

- «أيها الكفرة . . ».

- «نحن نؤمن بالله ورسوله وكتابه . . ».

- «شقشقة لسان . . ».

- «الحق ليس جانبك يا مطوع . . ».

- «أتجرؤ على مناقشتى؟ مَنْ أنت؟».

- «إنسان يعرف الله . . ويعتصم بالحق دون أن أعرف القراءة والكتابة . . ».

قال المطوع وهو يمتطى حماره:

- «فلتنصب عليكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . ولتحرقكم نار أهل الأخدود، ولتسر فضيحتكم على ألسنة الناس فى كل الوجود، لستم أهلاً للخير، بل عصبة للشر، وستقع على رءوسكم كل ألوان البلاء والضر . . ».

- «كلامك جميل . . لكنه لا يدخل إلى قلبى . . » .

- «إن غداً لناظره قريب . . » .

وبعد سفر المطوع ، انكسرت حدة المعارضة تماماً ، ولم يعد بين الناس العاديين من يؤمن بأن الدم يغسل العار ، ويمحو الفضيحة ، وأصبحت قضية مريم وقضيتى شبه منتهية .

ورأى الناس بمرور الأيام أن الأمر ليس فيه شذوذ كبير واحترموا مشاعر شيخهم ولم يعودوا يلوكون سيرة ابنته كثيراً ، وإذا تحدثوا فإنما يتحدثون عن مريم زوجة الطبيب لا الهاربة المتمردة .

وأصبح الموضوع حافلاً بالطرافة والإثارة ، وأصبح أيضاً مرتعاً خصباً لخيال المراهقين والمراهقات ، ولعل الكثيرات كن يتمنين أن تساعدهن الأقدار فى الحصول على رجل كرجل مريم ، وقصة زاهية الألوان ، منمقة التفاصيل ، مليئة بالتشويق ، غنية بالأحداث كقصة الجميلة- مريم ابنة على زيد زيدون- بل وأصبح بعضهن ينشدن الرجال إلى المراكز الطبية المختلفة ظناً منهن أن الزمن قد يعيد القصة مرة أخرى . . .

أليست قصة مغرية؟

ألم تثر الحماسة والحيوية فى قلب الأرض العجفاء ذات القيظ والجفاف والصبر المرير ؟ !



١٦

امتدت أيام الصفو الحالم، ونعمنا بسعادة حقيقية دون خوف، وكان كل شيء يبدو جميلاً لا تشوبه شائبة، وقررنا العودة، وأخطرنا شيخ القبيلة بالموعد المحدد ولكن مريم عند السفر كانت مرتبكة بعض الشيء، وكانت تتردد:

- «تمنيت أن نبقى هنا أبد الدهر..».

- «الجنة يا حبيبتي مثواها القلب، خلف الضلوع، والجنة يا حبيبتي معنى علوى ترافقنا أينما رحلنا.. فى الأرض الخضراء.. أو فى البقاع الخراب.. فى الأرض أو فى السماء.. وأنا لا أخاف الرحيل.. والزواج ليس جريمة، فلنواجه الحياة، وأبوك قد أكد رضاه وموافقته.. وأنا أثق فيه..».

همست فى شرود:

- «أخاف العيون..».

- «ماذا؟».

- «سينظرون إليّ نظرات خبيثة . . » .

- «هذا وهم يا حبيبتى . . » .

- «أنا أعرفهم . . عشت بينهم سنين طويلة . . » .

- «حبنا يقهر الوساوس . . » .

- «لكنه لن يخنق همسات الحاقدين ، أو يقضى على نظراتهم المؤلمة . . » .

- «لن نبقى بينهم طويلاً . . » .

- «استعنت بالله . . » .

وحملتنا الطائرة إلى دبى ، وقضينا فى بيتنا ليلة واحدة ، ثم استأنفنا المسير فى اليوم التالى إلى رأس الخيمة وكان يوم جمعة ، ورافقنى بعض الزملاء الأطباء مشاركة فى الأفراح ، وتشوقًا لزيارة الشحوح ، وأتى أيضًا بعض زوجاتهم ، ولقد قررنا العودة فى المساء ، وعندما بلغنا جبل الشحوح كان مشهدًا رائعًا لا ينسى ، كل شىء كان على النقيض تمامًا مما تصورت مريم ، السعادة تغمر الوجوه ، والتشوق ينبعث من العيون ، يبدو أنهم نسوا كل معنى سيئ خلف الأحداث ، فرحة صبيانية صادقة ، وعلى زيد زيدون برغم شحوب وجهه كان يبتسم ابتسامه عريضة ، ويرفع هامته متحديًا ، احتضننى فى ود ، واحتضن زملائى ، وقفت أمامه مريم منكسة الرأس ،

والبرقع التلقيدى على وجهها وعيناها تبرقان فى قلق، قبل رأسها وربت على كتفها، ووجهها إلى داخل المسكن ونحرت الذبائح، وانطلقت الأغانى الجميلة.. أغانى الجبل العريقة.. وامتلأ الأفق بطلقات الرصاص.. لكن صيحات ملتاعة تناهت إلى أسماعنا.. ماذا جرى، وهرولنا.. كانت مريم ملقاة على الأرض تنزف دماءها وتقول فى ألم يمزق القلوب:

- «ألم أقل لك؟ كان يجب ألا نأتى هنا..».

كان خميس ابن عمها يقف وقد أمسك به عدد من الرجال، وتشبثوا بغدارة فى يده، وهو صامت لا يتكلم، وصاح على زيد زيدون:

- «هل فعلتها أيها النذل؟».

ووقفت مشدوهًا لا أكاد أصدق ما أرى أمامى، فى لحظات تبدل كل شىء، ماتت الفرحة، وعم الفزع، واستلقت مريم تئن، وتشكو إلى الله بعيون دامعة، وتمد يديها صوبى مستنجدة، وفى غمار الدهشة والفزع انطلقت رصاصة أخرى.. ووجدتنى أتهاوى زائغ النظرات، واهن القوى، كان «عبد الله» يقف على مقربة منى وفى يده مسدس صغير، وهاج الجبل وماج، وأمسكوا بتلابيب عبد الله.. اجتمع الغريمان على الانتقام منا، ولم أفق من غيبوبتى إلا بعد فترة من

الوقت، هأنذا أنام على سرير فى مستشفى رأس الخيمة، والدم ينتــقل إلى وريد فى ذراعى خــلال أنبــوبة رفــيــعــة من البلاستيك. . قلت بصوت واهن:

- «أين مريم. .».

كان على زيد زيدون يقف هو الآخر مع زملائى الأطباء إلى جوارى، وقال الرجل بصوت أجش صارم:

- «هى بخير. .».

وقال أحد زملائى:

- «الرصاصة لم تصب منك مقتلاً. . لقد أدت إلى عطب بسيط فى الكتف، وإن تسبب عنها نزيف كثير بعض الشىء. . كن مطمئنًا تمامًا. .».

قلت:

- «ومريم؟ أخبرونى بالحقيقة. .».

- «لا أكتمك إن إصابتها بالغة، لكنها ستمر بمرحلة الخطر بسلام. . لقد استقرت الرصاصة أسفل الرئة اليمنى. وهى لم تنزف كثيراً. . ونقلناها إلى مستشفى دبى. .».

انسكبت دموعى على الرغم منى، وكان جسدى يرتجف كله، وقال على زيد زيدون بصوت أجش مرة أخرى:

- «الرجال لا يبكون يا طبيب . .» .

- «أجل . . ولكنه غدر دنيء . .» .

- «سيكون العقاب رادعًا . .» .

- «لم نرتكب إثمًا . . لقد تزوجنا . .» .

- «أعرف . .» .

- «ورصاصات الحقد لن تمنع التغيير . . لن تقتل إرادة الإنسان . . سوف تمضى الحياة إلى الأمام كما أراد لها الله . . ربما نكون قد ارتكبنا بعض الحماقات . . لكن ذلك لا يعنى أن نموت وأن تداس عواطف الإنسان النبيلة . .» .

تدخل أحد الأطباء قائلاً :

- «أنت تعرف ما يجب فى مثل هذه الظروف . . فلتكف عن الحركة والكلام . .» .

- «أشكركم . . يا إلهى ! ! ماذا أرى؟ ها هى فاتسالا تقف هناك محتقنة العينين ، صديقتى الهندية . . وعندما وقعت عيناها علىّ ، خفضت رأسها . . فاتسالا . . كيف أنت؟ !» .

لم تجب ، لكن أحد زملائى قال :

- «لقد قامت بواجبها نحوك ونحو مريم على أروع وجه . . إنها ممرضة ممتازة . . يجب أن تشكرها . .» .

وانصرفت فاتسالا على أن أتصور المشاعر العارمة التى تعصف بقلب فاتسالا المسكينة . . لها الله . . وتمتم على زيد زيدون :

- «أعرف أن المطوع وراء كل ما حدث . . هو الذى أثار الفتنة، وحرض على الجريمة . . وسأجتث جذور الفساد من الجبل، ولن أسمح للحقد أن ينفث سمومه . . وسينال كل مجرم عقابه . . » .

قلت :

- «لا جدوى من الغضب . . لقدا أراد الله خيراً . . وكيف تركت مريم وحدها . . » .

قال على :

- «لقد ذهب معها أحد الأطباء . . » .

لم تستطع الرصاصة الغادرة أن تجهز على الفرحة المقدسة فى قلبى وروحى، آه . . آفة البشر التعساء . . الأنانية . . لقد كان خميس يريدها لنفسه . . وكذلك عبد الله . . وكان المطوع يتمناها لنفسه . . فلتسل الدماء دون النظر إلى أشواق مريم المظلومة . . وبعد يومين نقلت أنا الآخر إلى مستشفى دبى . . كانت مريم قد تخطت مرحلة الخطر، وكانت تبتسم فى رضا، قلت لها :

- «لِمَ تبتسمين؟» .

- «ها نحن لم نمت . . لكن لماذا لا يضعون سريرى إلى جوارك . . ».

- «للمستشفى قوانين يجب احترامها . . ».

- «لكنك زوجى . . ».

- «نعم . . سواء تجاورنا أو تباعدنا . . ».

ثم أشارت بيدها قائلة :

- «اقترب منى . . » . .

وفى أذنى همست قائلة :

- «قال لى الطبيب إننى حامل . . وإن الجنين لم يمس بأذى . . ».

وأخفت وجهها فى الفراش، نظرت إليها . .

كانت أجمل وأشهى من أى وقت مضى، فى أعماقى موسيقى خالية تعزف لحنًا لم أسمع أروع منه، أشعر أننى أهيم وسط السحاب، وأسبح فى الهواء الطلق بجناحين من نور . وأرى نفسى أعبر الآفاق . . أرى الآكام أسفل منى . . الجبال . . البحار . . المدن . . القرى الصغيرة . . تمر تحت جناحى كشريط للسينما . . وأنا أعانق القمر . . وأنا أحب كل الناس . . وأحب الغرباء خاصة . . وعندما تم الشفاء . . وعدنا

إلى المسكن. . كان كل شىء على ما يرام. . وبعد يومين من استئنافى للعمل استدعانى مدير المستشفى وقال:

- «الجميع يتحدثون عما جرى. .».

- «أعرف. .».

- «وللمجتمع هنا مواصفات وتقاليد خاصة. .».

- «أجل. .».

- «نحن فى حرج. .».

أدركت ما يعنى المدير، ليس لكلامه معنى سوى أن أستقيل من عملى، لم يفتنى الأمر، كنت أفكر فيه وأنا فى لبنان، قبل أن تحدث الأحداث الدامية الأخيرة، وأجريت عدة اتصالات للبحث عن عمل فى بلد عربى آخر، وقد كللت مساعى بالنجاح، لم أكن قلقًا بل لعل الانتقال إلى مكان جديد أجدى وخير بالنسبة لنا، قلت فى هدوء:

- «أشكرك. . وسأكتب استقالتى اليوم. .».

- «ولك الحق فى أن تستمر فى عملك لمدة شهرين حتى تتدبر أمرك كما ينص العقد. .».

- «لا أريد أن ألتمس الأعذار لما حدث. . وأنا مدرك لكافة الظروف المحيطة».

وذات صباح ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد كنا نتجه صوب المطار فى سيارة أجرة، أنا ومريم وعلى زيد وزيدون، بعد ساعة سوف تحلق بنا الطائرة إلى البلد العربى الشقيق الذى تعاقدت معه . .

قال لى على وهو ينظر خلال زجاج السيارة :

مريم أمانة فى عنقك . . قالها فى انفعال ظاهر، ثم استطرد :

- «إذا شعرت يومًا أنك فى غير حاجة إليها فلا تسئ إليها . . فلترجعها إلى الجبل . . الجبل ذو قلب حنون، منذ آلاف السنين أحببناه وأحبنا، ومريم قطعة منه . . قطعة من قلبى . . لقد أصبحت معك زهرة القبيلة . . » .

وشهقت مريم باكية، بينما دمعت عينا الرجل الصلب الذى يأنف من البكاء، وشعرت أنى أكاد أنهار لهول موقف الفراق، لكنى تماسكت، وطوقت عنق مريم بذراعى، وقلت فى حنان :

- «مريم حياتى . . لقد أعطتنى أروع ما فى الوجود . . الحب والسعادة . . » .

وساد الصمت فترة، ثم قلت :

- «وسنحرص أن نقضى العطلة السنوية معك كل عام . . » .

واستدركت قائلاً :

- «بشرط واحد . . » .

- «وهو . . » .

- «ألا يكون فى استقبالنا خميس وعبد الله . . » .

ضحك الرجل وقال :

- «هما الآن فى السجن . . ولن أتوسط لإخلاء سبيلهما . . ذلك هو قرارى النهائى ، والمطوع هو الآخر لن يعود إلى القبيلة . . لقد ملت القبيلة السحر والدجل . . وسنرسل بأولادنا ليتعلموا الدين الحقيقى فى أماكن أخرى . . وعندما ستعودون ستجدون نمطًا جديدًا من المطوعين . . » .

وقلت وأنا أضحك :

- «سنعود ومعنا طفل صغير . . أليس كذلك يا مريم؟» .

وهمس الشيخ فى انفعال :

- «أحببتك من كل قلبى . . بل لعلى أحبك أكثر من مريم ذاتها» ، وتنهد فى ارتياح . . لقد عاد الهدوء إلى الجبل ، وصارت مريم حكاية حلوة؟ يرويها النسوة فى الليالى القمرية كملحمة من أشهى وأمتع ملاحم الجبل حيث تنتشر قبائل الشحوح . .

تمت